

في الغزو الفكري

الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح

الطبعة الأولى

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



صـــدر منــه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية
«طبعة ثالثة» ـ الشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
«طبعة ثالثة» ـ الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية «طبعة ثالثة» ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم «طبعة ثالثة» ـ الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري
«طبعة ثالثة» ـ الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري «طبعة ثالثة» ـ الدكتور محسن عبدالحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين
«طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية» ـ الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي «طبعة ثانية» ـ عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام «طبعة ثانية» ـ الدكتور طه جابر فياض العلواني
- التراث والمعاصرة «طبعة ثانية» ـ الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي
«طبعة ثانية» ـ الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل
«طبعة أولى» ـ عبدالقادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية «طبعة أولى» ـ جمال الدين عطية
- مدخل إلى الأدب الإسلامي «طبعة أولى» ـ الدكتور نجيب الكيلاني
- المخدرات من القلق إلى الاستعباد «طبعة أولى» ـ الدكتور محمد محمود الهواري
- الفكر المنهجي عند المحدثين «طبعة أولى» ـ الدكتور همام عبدالرحيم سعيد
- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار
الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الاستاذ عمر عبيد حسنة

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر
«طبعة أولى» ـ الدكتور زغلول راغب النجار
- دراسة في البناء الحضاري
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد مسفر
- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً
الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار
- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)
«طبعة أولى »+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي
- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد الكنعان
- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالعظيم محمود الديب
- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب
- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
- الصحوة الإسلامية في الأندلس
«طبعة أولى »+ طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني
- اليهود والتحالف مع الأقوياء
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبدالرزاق السامرائي
- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري
- النظم التعليمية عند المحدثين
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي اقلاينة
- العقل العربي وإعادة التشكيل
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبدالرحمن الطريري
- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

في الغزو الفكري

رجب ١٤١٤ هـ

قال تعالى :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(آل عمران : ٧٢)

تقـــــديــم

بقلم : عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، فقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وكَفَى باللهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح : ٢٨). . وهـذا الإظهـار، أو الظهور على الدين كله، ليس سبيله القهر، والغلبة المادية، والتسلط، وإلغاء الآخر، وانتقاص كرامة الإنسان، ونسخ اختياره، وإنما سوف يتحقق ذلك بما يمتلك الإسلام من خصائص ذاتية، تلتقي مع الفطرة، وتحقق إنسانية الإنسان، وتحمي كرامته، وتصون حريته، وتحقق له اختياره، وتهديه إلى المنهاج الحق، الذي يشكل دليل التعامل مع الحياة والأحياء، ويستنقذه من الضلالة والشقوة، ذلك أن هذا المنهاج بريء من التعصب، لأنه ليس حكرًا على لون أو جنس، أو قوم، أو جماعة، أو طائفة، كما أنه ليس حكرًا على زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وإنما هو من خالق الإنسان، الذي يعلم كينونته ومتقلبه ومثواه.

لذلك لايمكن أن يكون وسيلة لتسلط الإنسان على الإنسان، ولا أن يتجاهل حاجة من حاجات الإنسان التي فطره الله عليها، وكأن بين دين الهدى والحق، الذي أنزله خالق الإنسان، والإنسان، تواعد والتقاء، وأن معوقات هذا الظهور للدين، أو هذا اللقاء بالإنسان، إنما تكون بسبب الإنسان نفسه، وما لحق به من الإصابات التي تشكل

له حواجز وعثرات، أو بسبب مـن تخلف أدوات الدعوة، وافتقادها القدرة على التوصيل، والبلاغ المبين.

وحسبنا أن نقول : إن من أهم عوامل ومقـومات الظهور والإظهار لهذا الدين، هي في إيقافـه عبودية الإنسان لـلإنسان، وتسلط الإنسان على الإنسـان، وتحقيق انعتـاق البشر، مـن إسـار اللـون، والجنس، والقـوم، وعقـدة الـذنب، والفعل الخاطىء، أو الخطيئـة ، ومنحهم القدرة على التـوبة والتجاوز والارتقـاء، حيث ميزان الكرامـة التقوى والعمل الصالح، دون أي اعتبـار آخر، قال تعالى : ﴿يَـا أَيُّـهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُم شُعُوبًـا وَقَبَـائِلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات : ١٣).

والصـلاة والسلام على المبعـوث بالهدى ودين الحق، الـذي انتهت إليه أصـول الرسـالات السماوية جميعًا، فهـو ليس بدعًـا من الرسل، وإنما الهداية والحق الذي جاء به : هو مـا وصى الله به، وشرعه طريقًا للنبوة كلهـا، قال تعـالى : ﴿شَـرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَـا وَصَّى بِهِ نُـوحًا وَالَّذِي أَوحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَـا وَصَّيْنَا بِهِ إِبرَاهِيمَ وَمُـوسَى وَعِيسَى أَن أَقِيمُوا الـدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ كَبُـرَ عَلَـى الْمُشرِكِينَ مَـا تَـدعُوهُم إِلَيْـهِ اللهُ يَـجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى : ١٣).

لذلك فالـذي يؤمن بالإسلام دين الهداية والحق، هـو مؤمن بطبيعة الحال بالأنبيـاء جميعًا، لا يفـرق بين أحد من رسل الله، و الـذي كانت

سنتـه بيانًـا للقرآن، وسيرتـه تنزيـلاً له على الـواقع، لإقامـة المجتمع الأنموذج، الذي يسدده، ويصوبه، ويعصمه الوحي، ويربيه الله على عينه، وكفى بالله شهيدًا وبعد:

فهذا كتـاب الأمة السابع والثـلاثون «في الغزو الفكري»، للـدكتور أحمد عبدالرحيم السايح، أستاذ العقيـدة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة قطر، في سلسلة كتاب الأمة، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مسـاهمة في إيقاظ الوعي الحضـاري، وتحقيق الحصانة الفكـرية والثقافيـة، وإعادة بنـاء المرجعية، وتشكيـل مركـز الرؤيـة، في ضوء هدايات وعطاء الوحي، ومعارف وتجارب ومكتسبات العقل، وفك قيـود التحكم، والارتهان الثقافي، والاستـلاب الحضاري، ومعـالجة أسبـاب التقليـد الجماعي، والتخـاذل الفكـري، الـذي يصيب الأمـة بالـوهن، والعجز عن الإنتـاج المأمول، في المجالات المتعـددة، الأمر الذي يخلق عندها فراغات، وقـابليات لامتداد الآخر، ويجعلها أشبه بـالأرض المنخفضــة، التي تصب فيهــا، وتنتهي إليهـا كـل مـوارد ومـواريث الأمم الأخرى. وإننـا مهما حاولنـا إقامـة السدود، وبنـاء الحدود، ومحطـات الإنذار المبكـر، أو المتأخر، فسـوف لايجدي ذلك شيئًا، إذا لم نكن قادرين على الإنتاج، والعطاء، سواء في ذلك الداخل الإسلامي، أو الخارج الإنساني.

إن صوت النذير، وصيحات التحذيـر، بالخطر القادم من الطوفان الإعـلامي، والثقـافي، والحراســة على الحدود، سـوف لاتغني عنـا فتيـلاً، إذا لم نحسن إعادة البنـاء، ووضع البرامج والكيفيـات، التي تـرتقي بأدائنــا إلى مستـوى العطـاء العـالمي، إلى مستــوى الإســلام

والعصر.

ونخشى أن نقول: إن استمرار وامتداد مرحلة التعبئة والتحذير، وضرب طبول الحرب، دون القدرة على صناعة الأسلحة، وامتلاك الشوكات المتعددة، يمكن أن يصنف في النهاية، في إطار المساهمات السلبية، والتمكين لوسائل الغزو الفكري، حيث تتحول هذه التحذيرات والصيحات إلى أدوات نعالج بها أنفسنا، أو نوبخ بها أنفسنا، بشكل أصح، فمن خالف قوله فعله، فكأنما يوبخ نفسه.

والأمر الذي لابد أن نذكِّر به هنا، أن مسألة الغزو الفكري، لم تعد تفد إلينا، أو تتهددنا من خارج الحدود فقط، أي لم تعد غزواً من الخارج، ذلك الغزو، الذي يمكن إن أحسنا التعامل معه، أن يستفزنا، ويحرك طاقاتنا، ويجمِّع قوانا، ويقضي على الجوانب الرخوة، والشائخة في حياتنا، ويعيد فاعليتنا، ويكون بمثابة منبه، أو محرض حضاري، وثقافي، لواقعنا المتخلف، ويحفزنا على امتلاك القدرة على الصمود، والتجاوز للواقع، والإقلاع من جديد.

إن مسألة الغزو الفكري، لم تعد غزواً من الخارج كما أسلفنا، وإنما ـ وهذا هو الأمر الأخطر ـ جرت وتجري محاولات متعددة الوسائل، لاستنباتها في تربة العالم الإسلامي، وتكييفها مع ظروفه ومناخه الثقافي.

ولعلنا نقول أيضًا: إن الأمر اليوم بدأ يتجاوز ذلك العموم إلى محاولة زراعتها في مؤسسات ومنظمات العمل الإسلامي نفسها، وذلك باعتماد مجموعة من الممولين وأصحاب الشأن والنفوذ، تتولى الإنفاق، وصناعة الكتّاب والباحثين، الذين يوسمون في كثير من

الأحيـان بـالمفكـرين الإسـلاميين الكبـار، حيث يكبرون ويكبّرون، بـالترويج لهم، في وسائل الإعـلام، وإتاحـة الفرصـة أمامهم وإلقـاء الأضواء عليهم، في المؤتمرات، والندوات، ليؤدوا دورهم المرسوم في هز الثوابت الإسلامية، وتـوهين القيم الإسلامية في نفوس المسلمين، والنيل من المسالك والأخـلاق، والتقاليد الإسلاميـة، وحتى العقائد الإسلامية الثابتة، في الكتـاب والسنة ، كالنبوة، والغيب، والآخرة، ومحاولـة عزلها عن حيـاة الناس، واهتمامهـم، وممارسـة هدم الـذات الإسـلامية، وجلـدها، بـاسم النقـد، والتنظير، والترشيد. والقيـام بمقـاربات مع الحضـارة الغربيـة، وتقديم الغطـاء الإسلامي لقيمهـا ومفاهيمها، وتحضير القـابليات لاستقرارها، وقبـول القيم الغربية في عالم المسلمين، والتمكين لها، على حساب خصائص الحضارة والثقافة الإسلاميـة وثوابتها، إلى درجـة أصبحت معها قيم وكليـات الحضارة الغـربيـة، هي معيـار القبـول والـرفض، لكل مـواريثنـا الفكـريـة، والعقيدية، والثقافية، وتقاليدنا الاجتماعية.

ولعل الأمر الخطير في مسألة الغزو الفكري، الذي ما يزال يتكرر في حيـاة المسلمين، والـذي يأتي كثمـرة للوهن الثقـافي، والـوصـول إلى مـرحلة القصعـة، التي تمر بها الأمـة المسلمـة، والتي حـذر الرسـول ﴿ﷺ﴾ من الانتهاء إليها، حيث تؤدي إلى اهتزاز الثوابت والمعايير ، وغلبـة الحالة الغثـائية: هـو الفـرح بتحول بعض العنـاصر إلى الإتجاه الإسلامي ــ وهو أمر مفـرح حقًا لا شك ـ سـواء في ذلك من جاء من الـداخل الإسـلامي، كأن يتحـول من الاتجاه العلماني أو اليسـاري أو الاشتراكي، بعد أن أيقن فعلًا بضلاله في المعتقد، وإفلاسه في الواقع، وأتيحت له فـرصة الاطلاع على القيم الإسلاميـة، أو جاء من الخارج

الإسلامي، من غير المسلمين، واعتنق الإسلام، بعد أن أدركه الرشد وبلغ درجة الكمال، وانعتق من التدين الوراثي، وامتلك القدرة على التمييز بين الحق والباطل.

أقول: إن الأمر الخطير حقًا، هو أن يقودنا الفرح بتحول وإسلام هؤلاء، دون فحص واختبار، إلى حملهم إلى مواقع الريادة، والقيادة والتنظير، والتأثير، حملهم إلى المؤتمرات، والندوات، والجماعات والمؤسسات، دون أن يمتلكوا الحد الأدنى المطلوب من العلوم الشرعية، والثقافة الإسلامية، أو بكلمة مختصرة دون أن يمتلكوا المرجعية الإسلامية المطلوبة، للنظر والرأي والاجتهاد والتوليد، وتعدية الرؤية من خلال هذه المرجعية، وبذلك يستمرون بالاغتراف من مرجعياتهم السابقة، التي لم يغادرها الكثير منهم تمامًا، ويفرغون في ساحة الفكر الإسلامي، ولا يمتلكون من المناهج والأصول الإسلامية، والأصول الشرعية، إلا عموميات وشعارات الإسلام يستخدمها بعضهم كمدخل وجواز مرور إلى المسلمين، أو مؤسسات العمل الإسلامي، دون أن نلحظ أثر ذلك في فكرهم ونظامهم وعطائهم المعرفي فعلًا.

فهم سواء من حيث النتيجة، من حسنت نيته منهم، أو من ساءت طويته، إنهم في الحقيقة يشكلون المعابر الخفية للغزو الفكري الداخلي، أو الذاتي، الذي يتسلل تحت عناوين وشعارات الثقافة والمعرفة الإسلامية ويقع الكثير ضحايا لهم، لافتقادهم المعايير الدقيقة.

ولا شك أن العلوم الإنسانية، تشكل الميدان الخصب، والتربة المناسبة للغزو في حياة المسلمين الفكرية، منذ عهد بعيد، وذلك لأنها بطبيعة الحال ممتدة ومتقدمة في نطاق الثقافة الغربية، وأن آليتها

ومناهجها، ونظامها المعرفي اليوم، يكاد يكون غربيًّا بالكامل، وإننا نحن المسلمين، لانمتلك في هذا الميدان إلا القيم في الكتاب والسنة، التي تشكل لنا عواصم ومناعة ثقافية، إن أحسنا التعامل معها، حيث لابد من الاعتراف، أننا ما نزال نشكو فقر نظامنا التعليمي، والمعرفي، من آلية ومنهجية، نابعة من قيمنا، ومتسقة معها، إلا القليل القليل، لذلك فمن السهل جدًا، أن يُدخَل علينا، أو أن نُخترق من خلال النظام المعرفي الغربي، لأن الساحة تكاد تكون شبه خالية تمامًا، إلا من بعض النظرات المشتتة والمتفرقة، هنا وهناك، لاينتظمها منهج وبالتالي لاتشكل حصانة، ويكفي في غيبة الضوابط المنهجية، لقيم الكتاب والسنة أن نبهر بما عندهم، أو تحضّر قابلياتنا للتلقي، خاصة إذا ما أضيف لهذه الآليات شعار الإسلامية، وقدمت المسوغات، والأغطية الشرعية، بسبب إجراء بعض المقاربات مع القيم الإسلامية، حتى ولو لم يمتلك صاحبها المرجعية الإسلامية، إلا إدعاءًا، دون القدرة على الخروج من معطيات مرجعيته الغربية، وهذا لايقتصر على مجال الدراسات الإنسانية، وإن كانت هي الأخطر، وإنما لاينفك بشكل أو بآخر، عن سائر الحقول المعرفية.

ولعل من التوهم، الظن بأن الإنتاج المادي، والعلوم التجريبية، هي منتجات وعلوم بريئة محايدة، ومجردة عن العبور بثقافة أهلها ومنتجيها، إلى السوق الاستهلاكية، وبالتالي فهي لاتشكل خطورة ثقافية على المتعاملين معها، مع أن الحقيقة: أن الإنتاج المادي كائنًا ما كان هو ثمرة للمكوّن الثقافي، وسبيل إليه، ذلك أن أي إنتاج مادي، لايمكن أن ينشأ في فراغ، وبدون خلفيات فكرية، وشاكلات ثقافية.
لذلك يمكن القول: بأن أي إنتاج مادي لابد أن يكون متشبعًا

بثقافة المنتج، وحاملًا لبصماته، وقسماته الثقافية، وهو بالتالي يصبح أحد المعابر الرئيسة، لإشاعة القيم الثقافية، بطبيعة استعمالاته في المجالات المختلفة، وبذلك يعيد وإلى حد بعيد بناء النسيج الاجتماعي للأمة، كما أنه ينشىء شبكة علاقات اجتماعية جديدة، لأن الإنتاج المادي وآفاق الارتقاء به، والتعامل معه، تغرس قيماً، وتنشىء علاقات اجتماعية، ومكونات نفسية، تتسق معه، وتتشكل ثقافتها وأفكارها به.

صحيح أن المخاطر المترتبة على العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية، هي الأخطر في مجال الغزو الفكري، والتشكيل الثقافي، لكن صحيح أيضًا، أنه من الصعب وضع الحدود الفاصلة، بين الثقافة التي تمنحها العلوم الإنسانية، ودورها في الغزو الفكري، وبين ما تحمله العلوم والمنتجات التجريبية، من ثقافة منتجيها ،إلى مستهلكيها، ذلك أن منظومة الأفكار والمعتقدات، هي التي تنتج العلم، وتحدد أهدافه، وتبين وظيفته، وتضع فلسفته، التي تترافق معه، ولا تغيب أو تتخلف عنه.

والحقيقة التي لابد من الإشارة إليها، والتوقف عندها قليلاً، بما يسمح هذا المجال : هي أن الغزو الفكري لعالم المسلمين، شكل ولا يزال بعض الاختراقات ـ إن صح التعبير ـ وتسلل إلى ميدان خطير يمكن أن نسميه الغزو الديني، ونقصد به هنا أمرًا آخر، غير عملية التنصير، أو التبشير النصراني، الذي يمارس في عالم المسلمين، تحت شتى المسميات والعناوين. إن الغزو الديني الذي نقصده هنا، ونتبه إلى مخاطره، هو في انتقال علل التدين، وبعض التصورات والتأويلات التي ابتليت بها الأمم السابقة، إلى المسلمين، الأمر الذي

حذر منه القرآن في أكثر من مناسبة، وعرض له بأكثر من أسلوب وحديث، وقدم دروسه وعبره من قصص الأنبياء، ومجتمعات الأنبياء، واعتبر ذلك نوافذ للمسلمين، للإطلالة على واقع الأمم السابقة، والتعرف على أسباب هلاكها وسقوطها، واكتشاف سنة الله في النهوض والسقوط، لذلك جعل السير في الأرض، والتوغل في التاريخ الإنساني، من الفرائض الحضارية والاجتماعية، وإنما شرع هذا السير لتحقيق الوقاية الثقافية، والحصانة الحضارية، من غزو وانتقال علل التدين، التي كانت سبب السقوط والهلاك للأمم السابقة، كما حذرنا الرسول ﴿ﷺ﴾ من ذلك بقوله : لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله: آليهود والنصارى؟ قال فمن؟! (رواه مسلم).

ولعل من أخطر أنواع الغزو الديني، أو انتقال علل التدين التي تسربت إلى المسلمين، ذلك الصراع المفتعل بين الوحي، وبين العقل، أو بين الدين، وبين العلم، التي مارستها الكهانة الدينية الكنسية ، حيث احتكرت الفهم والتفسير، والاجتهاد، والتعليم، وجعلت الدين نقيض العلم، والعقل، وجعلت من مقتضيات التدين الصحيح، إلغاء العقل، وإغلاقه، «فمن تفلسف فقد تزندق»، وكان شعارها : «أطفىء سراج عقلك واتبعني»، وحالت دون العقل، ووظيفته في النظر، والتفكير، واكتشاف السنن والأسباب، وإدراك علة الخلق، بدعوى أن ذلك من إرادة الله، وكأن في الأمر تعارضًا، بين الأسباب التي لم تخرج في الأصل عن إرادة الله الذي خلقها، وجعلها، موصلة إلى النتائج، وبين إرادة الله! وتسرب هذا البلاء،

أو هــذه الثنـائيــة، بين الـوحـي والعقل، إلى الفكـر الإســلامي، واستنزفـت منه هـذه الجدليات العقيمة، البعيـدة عن طبيعـة الإسلام وقيمه، ردحاً طويّلا، مزق نسيج الأمـة الثقافي، وفرق طاقاتها وبعثر وحدتها الفكرية، وملأ حياتها بالفرق والاختلافات، بعيدًا عن المواقع الفكريـة المجديـة، وبدل أن تترجم قيم ومبـادىء الإسلام، إلى الأمم الأخـرى، لتخليصهـا من شقوتها، ومـا يمارس عليهـا من الإرهـاب الــديني، ومن ثـم إلحاق الــرحمة بها، تــرجمت تلك الجدليــات إلى الإســلام، وفصِّلت عليـه، فأدى ذلك إلى لون مـن الانشطار الثقـافي الرهيـب، الذي لا يـزال يفعل فعله في منـاهجنا التعليميـة إلى اليوم، ويمارسه الشركاء المتشاكسون ويذهب ضحيته الطالب.

فـالذين تـوجهـوا صوب الـوحي الإلهي، تـوجسوا في كل دعـوة، لإحياء وظيفة العقل، واستعـادة دوره في الاجتهاد، وتطبيق الإسلام على الواقع، من خـلال الخلفيات الفكرية التـاريخية، التي دخلت على الإسلام، بـاسم العقل والعقـلانية، لإلغاء الشرع، وتخوفـوا من أن الـدعـوة العقلية في حقيقتهـا، يمكن أن تكـون مطـروحة بـديـلاً عن الوحي، ونقيضًا له، خاصـة وأن كثيرا من دعاة إحياء وظيفة العقل، نشأوا في منـاخ الفصـام الثقـافي النصراني، بين العقل، والـوحي، ولم يكن للـدين نصيب في فكـرهم وسلـوكهم.. وسـاهمت بهذا التشـوه الثقافي، مناهـج التعليم المزدوجة إلى حد بعيد، حيث تـوجه، أول ما توجه، الغزو إليها.

ولا يـزال هـذا الانشطـار الثقــافي، يستنـزف الكثير من الطـاقـات الفكـريـة والعقليـة في العالم الإسـلامي، وتقـوم معـارك مفتعلـة، بين الـوحي والعقل، على الـرغم من أن العقل في الإسـلام سنـد الحقيقـة

الدينية، ومحل الـوحي، وإذا أسقط العقل، سقط الوحي والتكليف، وأن الوحـي هو الإطار المرجعي، الـذي يمنح العقل القيم المعصـومة ولا تعـارض ـ كما يقـول الإمـام ابن تيميـة وغيره ـ في الإسـلام : بين صحيح المنقول، وصريح المعقول، ذلك أن مصدر العقل والوحي هو الله، وبالتالي فلايمكن أن يقـع التناقض والتعارض، وأن أي تعارض معنـاه ضعف في سنـد المنقـول، أوعجـز وخطأ في الفهم، وكيفيـة الاستدلال. وعند احتمال التعارض، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المظنـون. ومع ذلك يأبى دعـاة التغريب والعلمنـة ـ جسـور ومعابـر الغزو الفكـري إلى العالم الإسـلامي ـ إلا أن يجعلـوا الـوحـي، والغيب، والـديـن، نقيض العقل، والعلـم اليقيني، ويضعونه في خانة الخرافة والأسطورة.

ولعل من أخطر إصـابات الغـزو الفكري، ما كـان في مجال العملية التعليميـة، أو نظم التعليم، في عـالم المسلمين اليـوم، هـو في إنتـاج شخصيات مشـوهة، مشـوشة، متنـاقضة، وممـزقة، تعيـش صراعًا وانشطـارًا ثقـافيًّـا، لاينتهـي، نتيجـة لتنـاقض الموارد التعليمية، واضطراب فلسفة التعليم، الـذي يذهب ضحيتها الطالب كما أسلفنا، وذلك بسبب الفصل بين التعليم الديني، والتعليم المدني، الذي كـان ثمرة طبيعيـة، للصراع بين العلم، والدين، أو بين العلـم، ورجال الكنيسـة على الأصح، عندما وقف رجال الكنيسـة، في وجه العلم والعلماء، ومن ثم جيء بـه إلى عالم المسلمين، الـذي لم يعان من تلك المشكـلات أصـلاً، وإنما كان ارتقـاؤه العلمي، بسبب الإسـلام الذي اعتبر العلم بشكل عـام عبادة، وفريضة عينيـة، أو كفائية، وأن تخلفه اليوم، هـو بسبب انسلاخه عن الإسلام، لا بسبـب استمساكه

والتزامه به .

لذلك بإمكاننا القول : إن مؤسسات التعليم المدني - إن صح التعبير ــ التي أقيمت في العـالم الإسلامي ، إنما بنت فلسفتهـا ، على تكـريس فصل الـديـن عن الحيـاة ، ومعـاداتــه ، ووضعـه في خـانــة الخرافـة والأسـاطير ، والغيبيات المبهمـة ، وحـاولت إلغـاء الوحي كمصـدر للمعرفة ، لأنها غير خـاضعة للحس والتجريب ، وانعكس ذلك على شعب المعرفة كلها . . وأريد لمؤسسات التعليم المدني ، أن تخرِّج أعداءً للإسلام ، جهلة بتاريخه وثقافتـه ، وحضارته ، يدينون للتحكم الثقافي الغربي ، في اللغة ، والمنهج ، والمصـدر ، والمرجع والأستاذ ، حتى لقد وصل الأمـر إلى تهميـش اللغـة العـربيــة ، التي تعتبر من أهم أدوات التـوصيل بين الإنسـان والقيم في الكتـاب والسنـة والتراث ، وإلغـاء دورها في الربط بين التفكير والتعبير ، ومحاصرتها في المساجد والمعابد ، بعيــدًا عن مـؤسســات التعليم ، ومحاولــة التمييـز بين لغــة العلم ، الإنكليزيـة أو الفرنسية ، ولغـة الدين ، أو بعبارة أخـرى ، التمييز بين لغة المعبد ، ولغـة المعهد ، حتى لتكاد تصبح هذه الغربة حقيقـة ثقافية عند بعض الناس .

وكان من الطبيعي أن يحتل خريجوا مؤسسات التعليم المدني ، المواقع المؤثــرة ، في المجتمع ، سـواء قلنــا : إن ذلك جــاء بسبب التخطيط والاحتواء الثقافي ، والتمكين السياسي ، أم قلنـا ، : بأنهم أُهِّلوا بطبيعة دراساتهم وتخصصاتهم ، لشغل وظائف الـدولة الحديثة ، بينما انغلقت بعض مـؤسسـات التعليم الشرعـي والـديني ، على الماضي ، فعـاشت غـربة الـزمان ، وإن لم تعش غـربـة المكان ، الـذي عاشتـه مؤسسـات التغــريب ، ولم تتنبــه لشمــوليـــة التصــور الإســلامي ، وأهميــة

التخصصات، المطلوبة للمجتمع، وأنها من الفروض الدينية الكفائية، وأهمية تطوير فلسفتها، وأساليبها، ومناهجها، ودراساتها، وحوصر خريجوها، ببعض الوظائف الهامشية، التي حالت دون تأثيرهم في المجتمع، مما أدى إلى عزوف كثير من الطلاب عنها، إلا في حالات خاصة، من الفقر، والعجز عن متابعة التعليم في مؤسسات تقتضي نفقة، أو بسبب ضعف المستوى العلمي، الذي لايؤهلهم إلى دخول مؤسسات التعليم المدني، وهنا وقعت الواقعة في نوعية الطلبة، وفي أسلوب التعليم وطرائقه ومخرجاته، ولولا عطاء الصحوة الإسلامية، التي حفزت الكثير من الطلبة النابهين على الدراسات الشرعية، ودخلت المؤسسات التعليمية عامة، وعلى كل المستويات المتوسطة والجامعية ، ولم تخرج منها، كما هو المنطقي، والمطلوب، فأنقذت كثيرًا من الأجيال المسلمة، من التيه، وضياع الانتماء الحضاري، وأعادت الثقة، والاعتبار، لبعض خريجي المدارس الشرعية، وتقدمت بهم إلى الحياة، لكانت الكارثة التعليمية والثقافية مدمرة فعلاً.

وليست إصابات الغزو الفكري في مجال الإعلام الذي يعتبر بحق: مؤسسة التعليم، والتشكيل الثقافي المستمر، بأقل خطرًا، ذلك أن الإعلام، بما يمتلك من إمكانيات فنية تستخدم الصورة والصوت، والضوء، واللون، واللباس، إلى جانب التنوع، والتفنن، بالأوعية والفقرات الإعلامية، التي باتت تغطي كل المساحات، وتملأ كل الأوقات، أصبح من أهم وأخطر وسائل الغز والفكري والتشكيل الثقافي، حتى لنكاد نقول : إن الإنسان بشكل عام بات مرتهنًا اليوم لوسائل الإعلام، وواقعًا تحت رحمتها، في تكوين آرائه

وبنـاء ثقافتـه، وتشكيل نظرتـه إلى العالم، وقـد يكون ميـدان الصراع الحضاري الحقيقي اليوم، قد تحول إلى مجال الإعلام، وأصبح التمكن من امتـلاك الشوكـة الإعلاميـة، بكل لـوازمها ومقتضيـاتها، يضمن الغلبة الثقافية، التي تعتبر ركيـزة التفوق الحضاري، ذلك أن الإعلام بقدرته على الامتداد، والاختراق، ألغى الحدود الجغـرافية والسياسية للدول، وتجاوز كـل المعوقات، وامتـد بحواس الإنسـان حتى أصبح يرى ويسمع العالم من مكانه.

والحقيقة أن هـذا الضخ الإعلامي الـرهيب الرعيب، الـذي يصب فوق رؤوسنا، والذي حققته ثـورة الاتصالات والمعلومات، بمقدار ما يشكل لنا من مخاطر فكرية وثقـافية، بمقدار ما يمنحنا من إمكانات كبيرة، لـو تمكنـا من استخـدامهـا وتـوظيفهـا، لاستطعنـا أن نصل بـالخطاب الإسـلامي إلى كل الـدنيـا، ونحقق ظهور هـذا الـدين على الأديـان والحضـارات، والثقافـات العنصريـة القـائمة، لأنـه الـدين الإنسـاني الـذي تستجيب لــه فطـرة الإنسـان، ويمثل حق اليقين، والبديل المأمول، الذي يحقق المشترك الحضاري، والثقافي، الإنساني، بعيدًا عن التعصب والتمييز والتفرقـة العنصرية لأنه دين مفتوح مشرّع الأبـواب لكـل البـاحثين عن الحق، وحيث التفـاضل فيــه للتقـوى والعمل الصالح.

وقضية أخـرى في مجال المسألة الإعـلامية، أو الإغـراق الإعلامي، لابـد من الإشــارة إليهـا، وهي أن الأمـة التي تمتلك معــايير ثـابتـة ومعصـومة، يمكن أن تشكـل لها حصانـة ثقـافية، بإمكـانها أن تحوّل الطــوفـان الإعــلامي، إلى لـون من استشعــار التحـدي لكيــانها، والاستفـزاز لفاعليتهـا، والاستنفـار لطاقـاتها المعطلـة، الأمر الـذي

يحملها إلى إبداع الدليل الصحيح للوقاية الثقافية والإعلامية، ويحفزها على الإنتاج البديل، ويمنحها القدرة على التعامل، بحيث تتحول المشكلة إلى حل، والنقمة إلى نعمة، والتحدي الخارجي والداخلي، إلى الشعور بأهمية استرداد الذات، والاعتماد عليها، والاحتماء بها، وحماية الهوية الثقافية من الإلغاء.

وقد يكون من أخطر مراحل الغزو أو وسائل الغزو الفكري على الإطلاق اليوم، وفي ظل هيمنة النظام العالمي الجديد، الذي ليس له من العالمية، أو المشترك الإنساني إلا الاسم، لأنه أصبح يتدخل بسيادات الدول وثقافاتها بالقوة، وبشكل مكشوف، تحت عنوان «حق التدخل الإنساني» والذي كان من أولى إصاباته في عالم المسلمين التمكين لسيطرة اليهود، والتوهين للقيم والمبادىء الإسلامية، ومحاصرة مؤسسات العمل الإسلامي، وشل نشاطها، لأن ذلك من لوازم الحقبة اليهودية القائمة والقادمة، والتخويف منها، أو دمغها بالتطرف والإرهاب، والأصولية، نقول: لعل من أخطر وسائل الغزو الفكري، ومراحله، هو ما يسمى اليوم بمرحلة التطبيع الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، مع يهود، الذي يمكن أن يعتبر الصورة الأحدث للغزو الفكري المكشوف، حيث يقتضي اقتلاع الثوابت الدينية والوطنية، ومحو الذاكرة العربية المسلمة، وإلغاء مخزونها الثقافي والفكري، وإيقاف الموارد الثقافية، والتواصل والنقل المعرفي بين الأجيال، تحت عنوان: التجفيف، وإعادة التثقيف، أي تجفيف منابع الدين والصحوة، وانتقاص الرؤية القرآنية، وذلك بحذف الآيات، والأحاديث النبوية، التي تتحدث عن تاريخ يهود وأخلاقهم، ومسخ الشخصية التاريخية للأمة، والعبث بمناهج

الإعلام والتعليم، حتى تؤدي دورها في عملية التطبيع والتدجين.

والحقيقة التي لابد من الاعتراف بها، والتفكير بمواجهتها، أن عملية التطبيع هذه، إنما يحضر لها، وتعد وسائلها، على الأصعدة المختلفة في التعليم، والإعلام، والسياسة، والثقافة، منذ زمن بعيد، وأنها من بعض الوجوه، تعتبر الثمرة الدسمة للغزو الفكري التاريخي لهذه الأمة. وقد يكون المطلوب من مؤسسات العمل الإسلامي جميعها التفكير بالكيفيات ووضع البرامج المدروسة، للتعامل مع مرحلة ما بعد عملية السلام، المفروضة، وبناء الحصانات المطلوبة، التي تحول دون السقوط والذوبان، للاحتفاظ بكيان الأمة وثوابتها وثقافتها، إذا لم تكن قادرة على التغيير.

ولعل من المفيد الإشارة هنا، إلى ما ورد في نشرة الأنباء العربية، الصادرة عن وكالة الإعلام الأمريكية في واشنطن، التي تشير إلى أخطر ممارسات الغزو الثقافي، أو التطبيع الفكري والاجتماعي، كما يسمونه اليوم، بين العرب المهجَّرين والمغتصبة أرضهم، ومنازلهم، وبين اليهود المحتلين! وذلك من خلال البرنامج المشبوه المسمى «بذور السلام» حيث يجتمع ٤٣ فتى من مصر وفلسطين والكيان الإسرائيلي تتراوح أعمارهم ما بين ١١ إلى ١٤ سنة بهدف: إيجاد تواصل بين الأجيال الشابة في البلدان العربية وإسرائيل، لبناء جسور السلام، من خلال إيجاد قنوات مشتركة للتفاهم بين فئات حديثة النشأة وقد أعد لذلك برامج، وندوات، وزيارات، وأفلام الخ.

والمثل الآخر لهذا الغزو، تحت شعار التطبيع، ما صرح به وزير التربية في إحدى الدول العربية، ونشرته جريدة المسلمون في عددها الصادر بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر ١٤١٤هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٩٣م،

من أنه تلقى طلبًا أمريكيًا بتغيير المناهج المدرسية، بحيث يتم حذف كل إشارة إلى الصراع العربي الإسرائيلي، وقد عبر الوزير عن دهشته، وقال: إن هذا الطلب يجيء في الوقت الذي تحفل فيه المناهج، والكتب المدرسية الصهيونية، بآلاف التعابير المعادية، والمهينة للعرب والمسلمين.. وهكذا تمضي الأمور، ويمكّن للغزو أو التطبيع، بين المحتل الغاصب، والمظلوم اللاجىء.

وفي تقديري، أن الغزو الفكري بصوره المتعددة وميادينه المتنوعة، لايخرج عن أن يكون سنة من سنن التدافع، في الاجتماع البشري، وهو سر نمو الحياة وامتدادها، ذلك أن التنوع، والاختلاف، والتباين، هو أساس الفعل التاريخي، ومجال الابتلاءات والفتن المتعددة، في مجالي الخير والشر، ليتحقق التمحيص، وتستبين الحقيقة، ويتضح سبيل المجرمين، ويذهب الزبد جفاء، ويمكث الحق في الحياة، ويتمايز الناس، وتتحصل وراثة الأصلح، ذلك أن الشر من لوازم الخير، قال تعالى: ﴿وكَذَلكَ جَعَلْنَا لكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا منَ المُجرمينَ﴾ (الفرقان: ٣١) وقال: ﴿ولَولا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم ببَعض لَهُدِّمَت صَوامعُ وَبيعٌ وَصَلَوات وَمَساجدُ يُذكَرُ فيهَا اسم الله كثيرًا﴾ (الحج: ٤٠) وقال: ﴿وكَذَلكَ يَضربُ الله الحَقَّ والبَاطلَ فَأمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفَاءً وَأمَّا مَايَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ في الأرض﴾ (الرعد: ١٧)، فالغزو الفكري أو الإفك الفكري، بميادينه المتعددة، وشوكاته المتنوعة، والذي هو سنة من سنن الاجتماع البشري، ليس شرًا كله، بل هو خير، في كثير من الوجوه، قال

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُم لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور: ١١) لأنه يعتبر من الكواشف المطلوبة، فلولا الفتن لما عرف النفاق، وتحصن الناس ضده.

لذلك كان يقول بعض الصالحين: لاتخافوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، وجانب الخير فيها لو أحسنا تدبره، وتبصره، وتحقيق عبرته، كبير، فهو يعتبر من المنبهات الثقافية، والتحديات الحضارية الضرورية، لإعادة شحذ الفاعلية، واستعادة الذات، وإنهاء حالة الاسترخاء، والكسل، وإعادة النظر في كيفية التعامل مع القيم الإسلامية، وإدراك خطورة بعدها عن حكم الواقع، واكتشاف الثغور المفتوحة، والمعاصي والآثام المقترفة، التي اقتضت مثل هذه العقوبات.

وكما أننا بحاجة إلى معرفة الخير، لنفعله، فكذلك نحن بحاجة إلى معرفة الشر، خشية أن يدركنا، ومن لم يعرف الجاهلية، لايعرف الإسلام، بكل ما تميز به من النقلة والتحويل، من الوثنية إلى التوحيد.

والأمر الذي قد يكون من المفيد الإشارة إليه، والتذكير به، أننا كأمة مسلمة، قد نخسر مواجهة، أو قد نهزم في معركة أو معارك، فالأمم قد تمرض، وتعاني من عملية السقوط والركود، والتخاذل وغلبة الأعداء، وقد يكون هذا من ضرورات صحوتها، وإيقاظها، لكن في الأحوال كلها، لايجوز أن يختزل تاريخها وعطاؤها الحضاري، في معركة، أو مواجهة، أو غلبة مؤقتة، أو جولة من جولات الصراع، عندما تخضع لسنة التداول الحضاري، لقوله تعالى:

﴿وتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران : ١٤٠) فكثيراً ما برهنت هذه الأمة المسلمة على استعلائها بالإيمان حتى في فترات الوهن والهزيمة، وقلبت الموازين والسنن الاجتماعية والحضارية الشائعة، التي تقضي: بأن المغلوب في مرحلة السقوط العسكري، والحضاري، مولع دائماً بتقليد الغالب، وإذا بنا نرى في الفعل التاريخي الإسلامي، أن الغالب تحول إلى التزام ومحاكاة قيم المغلوب، وكانت حضارة، وثقافة المغلوب، هي الأقدر، على هضم واستيعاب الغالب، كما هو الحال عندما احتلت صقلية، وسقطت بغداد في يد المغول، وغيرها، حيث كانت ثقافة وحضارة وعقيدة المغلوب، أقوى من جند الغالب، فتحول الغالب إلى الإيمان بها والامتداد والانتصار لها، وهذا ليس من باب التفاؤل الساذج، وإنما هو من وعود ومبشرات الوحي، ومن شواهد الفعل التاريخي، وتصديق الواقع الملموس.

ولاشك عندي بأن قيم الكتاب والسنة المعصومة الخالدة المجردة عن حدود الزمان والمكان، هي بالنسبة للأمة المسلمة عواصم من السقوط، كما أنها تشكل خميرة النهوض، وتوفر الإمكان الحضاري للأمة، كلما عادت للاستمساك بها، وأن هذه القيم، بمقدار ما تشكل قوة دافعة للنهوض، واستعادة الفاعلية في أيام العافية، بمقدار ما تشكل قوة وحصانة حضارية وثقافية مانعة في أوقات الانكسار والسقوط.

إن من مواثيق الله لهذه الأمة، أن لايُسَلَّط عليها عدوها تسليط استئصال وإلغاء، على مختلف المستويات، وإنما هي ألوان من الأذى،

تلحق بها، بسبب من تقصيرهـا ومعـاصيهـا، هي عقـوبـات على المعـاصي، لإعـادة الـوعي، واستـدراك جـوانب التقصير، وتحديـد مواطن القصور.

ذلك أن من لـوازم الـرسالـة الخاتمة وخلـودهـا، استمرار حملتهـا، وخلـود الأمـة التي تـؤمـن بها، واستمـرار ظهـورهـا بـالحق والهدى والشهادة على الناس.

ولعل مما يمنحنا الاطمئنان، أن الرسـالة الإسلامية هي في حقيقتها رسالة معيارية، جاءت لتصويب ما داخل النبوات السابقة من تحريف وتبديل، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِـمَـا بين يَـدَيـه منَ الكتَـاب وَمُهَيْمنًا عَلَيـه﴾ (المائدة: ٤٨) فـالهيمنـة هنـا هي المعياريةَ بكل مَدلولاتها.

والـرســول ﴿ﷺ﴾ بما أوحي إليـه، يشكل معيـارًا وشــاهـدًا على النـاس، قال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّـهَا النَّبِـي إِنَّا أَرسَلنَـاكَ شـاهدًا وَمُبَشِّـرًا ونَـــذيـــرًا﴾(الأحزاب: ٤).. وقال ﴿.. وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) والمعيارية إحدى وظائف الشهادة.

والأمة المسلمـة هي الأمة المعيـار، التي وكل إليها أمـر الشهادة على النـاس والقيادة لهم، بما تمتلك من قيم معصـومة محفـوظة في الكتـاب والسنة.

قـال تعالى: ﴿وَكَـذَلكَ جَعَلْنَـاكُم أُمَّةً وَسَطًـا لتكُـونُوا شُهَـدَاءَ عَلَىَ النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

فالقرآن معيار، والرسول ﴿ﷺ﴾ (السنة والسيرة) معيار، والأمة المسلمة حاملة الكتاب والسنة معيار، وهذه المعيارية ليست قيماً من وضع الإنسان، يغيرها حسب هواه.

والمعيارية تعني أن الأمة المسلمة المؤمنة بهذه الرسالة، ستبقى بمأمن من الغزو الفكري لأنها عند التزامها بقيمها تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع.

فالغزو الفكري لايذوب ثقافتها، ولا يلغي هويتها، ولايطغى على قيمها، وإنما هي ألوان من الأذى، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكم إلاَّ أذىً﴾. (آل عمران: ١١١).

والغزو الفكري، إنما يمتد ابتداء في داخل الأمة، الفاقدة للمعيار ومركز الرؤية، الذي تعرف في ضوئه ماذا تأخذ، وماذا تدع.. فكيف والحالة هذه يمكن أن تسقط الأمة المسلمة ثقافيًا، وحضاريًا؟! لذلك تتركز اليوم وسائل الغزو الفكري، في محاولة إخراج الأمة عن دينها، وقيمها المعيارية، لتصبح مهيأة، لتقبل ما يلقى إليها، دون القدرة على اختباره، ومعايرته، بالشكل المطلوب.

ولعل من أخطر وسائل الغزو القديمة الجديدة اليوم، إنما تكمن في محاولات الاختراق للمؤسسات الإسلامية، ومواقع العمل الإسلامي ومحاولة الانحراف بها من الداخل، لإخراجها من الإسلام، أو لحملها على ممارسات، تشوه صورتها، تأتي نتيجة للضغوط الاجتماعية، وردود الأفعال، في محاولة لتشويه البديل الإسلامي المأمول، بعد أن سقطت القيم الثقافية والسياسية، التي تغري بالحضارة الغربية، وتبين أن طرحها في بلاد المسلمين كان لونًا من

الغزو، لتحقيق العمالة الحضارية، والثقافية، التي تمكِّن وتقود للعمالة السياسية، واتجه الناس صوب الإسلام.. ومحاولات هذا الاختراق الثقافي، ستبقى دائمة ومستمرة، يقول تعالى:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّن أهلِ الكتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجهَ النَّهَارِ وَاكفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

فمحاولات الدخول والخروج مستمرة، والاختراق قائم دائمًا. والشواهد كثيرة.

وقد يكون من أخطر وسائل الاختراق، أو الغزو الثقافي، أو الفكري، عند عدم القدرة على مس معارف الوحي في الكتاب والسنة، بشكل مباشر، التحول إلى التفسير والتأويل لهذه المعارف، بما يوهن القيم في نفوس المسلمين، ويخرج بالمعنى عما وضع له اللفظ، كلون من التحريف المعاصر، في محاولة لتوفير الغطاء، والمسوغات الشرعية لقيم الحضارة الأوروبية.

لذلك لابد من التأكيد، أنه من الناحية الشرعية، والعلمية، والمنهجية، والثقافية، لايجوز بحال من الأحوال الاستقلال بالتفسير بالرأي، والخروج به، عن إطار، وضبط، التفسير بالمأثور، والبيان النبوي، حتى لاتزل قدم بعد ثبوتها، وحتى لانخترق، ويصبح الغزو ذاتيًا، ومن الداخل الإسلامي. فللعقل أن يرتاد الآفاق، ويمتد بالنص، ويجرده عن قيود الزمان والمكان، ويعدِّي الرؤية، ويحقق الخلود، لكن ذلك لابد ألا يخرج عن نطاق البيان النبوي، أو يعارضه أو يلغيه.

وفي تقديري، أن عملية التجديد، التي أخبر بها المعصوم عليه

الصلاة والسلام بقوله: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.» (رواه أبوداود في الملاحم) ـ والذي أرى فيه أمرًا تكليفيًّا زائدًا عن الإخبار ـ إنما تتركز في إعادة المعايرة للواقع، وما صار إليه، وما لحقه من إصابات الغزو الفكري، وما توضع عليه من اجتهادات بشرية، بعد أن تبدلت الظروف، وتغيرت المشكلات، وما استجد من أوضاع، وما ساده من تقليد، كاد يحجب الرؤية عن القيم المعصومة في الكتاب والسنة.. هذه المعايرة أو التجديد، هي في الحقيقة ليست إلغاءًا، أو تبديلا، أو تعديلاً للقيم، وإنما هي عودة إلى المعايرةللواقع، بالقيم المعصومة، وإعادة النظر في تنزيلها على الواقع، واستئصال نابتة السوء، ومحاصرة البدع والخرافات، التي ألفها الناس، وبيان فسادها، ومخالفتها للشرع، وتحديد مواطن الانحراف، وإصابات الغزو الفكري، وكشف علل التدين.. وبكلمة مختصرة: التجديد والمعايرة: عودة إلى الينابيع الأولى للإقلاع من جديد. وبعد؛

فلعل المرحلة التي نمر بها الآن، تقتضي منا العودة إلى عملية التعبئة العامة، والنفرة خفافًا وثقالاً، في الميادين المختلفة، في مواجهة الهجمة الشرسة، وإدراك أبعاد ووسائل الغزو الفكري، وأهدافه، التي يعمل لها في بلاد المسلمين، في حقبة العلو اليهودي الثقافي والسياسي، بعد العلو العسكري، الذي سبقه، ومهد له، في محاولة لتحقيق الحصانة الحضارية، والمناعة الفكرية للأمة، والحيلولة دون سقوطها، بما يراد لها في هذا الزمن، الذي يتعاظم فيه أجر الالتزام بالقيم الإسلامية، بتعاظم الفتن، التي لابد من مبادرتها بالأعمال الصالحة، كمسالك، ونماذج عملية، تحقق الحماية، وتحمي نسيج الأمة، وتحول دون

الذوبان، لقول الرسول ﴿ﷺ﴾: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتنًا كقطع الليل المظلم»، (رواه مسلم) إضافة إلى إعادة بناء نسيجها الثقافي، وتصويب معاييرها، ولا سبيل إلى ذلك، إلا بالعودة للاستمساك بالكتاب والسنة، حتى نأمن الضلال، والتضليل الفكري والثقافي.

والكتاب الذي نقدمه اليوم، هو محاولة لإلقاء بعض الأضواء الكاشفة على وسائل الغزو الفكري، وأهدافه، في بلاد المسلمين، والتعرف إلى جذورها ومظاهرها.

ولعل الاقتباسات الكثيرة التي أوردها مؤلف الكتاب ــ جزاه الله خيرًا ــ تفتح نوافذ واسعة على مراجع ومصادر فكرية، في المكتبة الإسلامية للكثير من القضايا المطروحة، وتكون دليلاً لمتابعة هذه المسألة الخطيرة في حياة المسلمين.

والله نسأل أن يلهمنا رشدنا، ويهدينا إلى سواء السبيل.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. جعل الدين عنده الإسلام. والصلاة والسلام على رسول الإنسانية محمد الصادق الأمين.

أما بعد :

فإن التيارات الفكرية، والحركات المعاصرة، تشكل تياراً جارفًا. يزحف على المجتمعات الإنسانية في خبث ومكر ودهاء. ليصرف المجتمعات عن حركة الحياة، ويشغلها بما هو بعيد عنها.

ولقد عانت المجتمعات الإسلامية من التيارات الفكرية الزاحفة، وشغل الناس بها. مما صرف الناس عن المواكبة العلمية، والفهم الصحيح لمبادىء الإسلام. ومما لايخفى على عاقل : أن التيارات الفكرية، تعمل بكل ما تمتلك من إمكانات على غزو المجتمعات الإسلامية، غزواً يفتت الأمة ويضعف من انطلاقها، ويقيد حركتها، ويبعدها عن الواقع.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيال، وتساقطت في هاوية الفساد بسبب هذه التيارات. والتي يرقص السذج والجهال على نغم إيقاعها. ويفتنون بمظاهرها وواجهاتها.

وقد لايخفى : أن الأمم، تسعد، وتشقى، وتصح وتمرض، وهي بحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة، التي تنتاب النفوس المظلمة، التي فقدت مناعتها، فخارت قواها.

ولا توجد مدرسة تتناول بالرعاية والعناية ، النفس الإنسانية، كمدرسة الإيمان. لأن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويحول بين

النفس، وبين دواعي الانحراف، بما يوفر من قيم فعالة، تعالج ما قد يبتلى به الإنسان.

وقد لايكون المرء مجانباً للصواب، إذا ما تأكد لديه: أن ما تعانيه المجتمعات الإسلامية من هزائم فكرية، واقتصادية، وسياسية، واجتماعية، هو نتيجة حتمية لانهدام الشخصية الإسلامية.

ويكاد يكون معروفا، أن أخطر ما تتعرض له الأمة هو هدم شخصيتها الإسلامية هدّما عقديًّا، وثقافيًّا وسلوكيًّا.

ولعل طبيعة الهدم، لم تنشأ إلا من جراء انهدام الشخصية، وما أعقب ذلك من غياب الفاعلية في حياة المسلم.

ولهذا جاء هذا الكتاب ليبين: أن الأمة الإسلامية هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار. وأن سوق الأفكار من أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد.

ومن حق مجتمعات الأمة الإسلامية أن تتنبه للأخطار الفكرية، والتيارات الهدّامة التي تحدق بالأمة.

ومن حق الأمة الإسلامية، أن تتبصر المواقع، وتتعرف على طريق الصواب.

ولابد لهذه الأمة أن تدرك وجودها، وتبحث عن مكانتها التي نيطت بها.

وإن أمة تخطو إلى الأمام، لابد وأن تنطلق بقوة، ووعي، مسترشدة بمبادىء وتعاليم الإسلام.

الفصل الأول
الغزو الفكري

مصطلح الغزو الفكري :

بداية نقف عند مصطلح «الغزو الفكري» الذي يتردد في هذا العصر كثيرا على ألسنة الباحثين، والكاتبين، والمتحدثين، وإن وقفة استقرائية، تكشف في وضوح : أن هذا المصطلح، لم يسمع به قبل القرن الرابع عشر الهجري «القرن العشرين الميلادي».

ولكن ليس معنى عدم وجود المصطلح، أو عدم استخدام المصطلح، قبل القرن الرابع عشر الهجري، إن معنى الغزو الفكري، ومفهومه، وموضوعه، لم يكن موجوداً، لأن المستقرىء لأحوال الأمم والشعوب، يجد أن مفهوم الغزو الفكري، كان موجودًا في القديم، وفي الحديث . .

وكلمة : «الغزو» في اللغة العربية تُعْطي معنى : القصد، والطلب، والسير إلى قتال الأعداء، في ديارهم، وانتهابهم، وقهرهم، والتغلب عليهم.

ومصطلح الغزو الفكري، قصد به : «إغارة الأعداء على أمة من الأمم، بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتدمير قواها الداخلية، وعزائمها ومقوماتها. وانتهاب كل ما تملك»(١)

---

١ — أنظر : الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٠، ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، القاهرة.

والفـرق بين «الغـزو الفكري»، و«الغـزو العسكـري» : أن الغـزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهـداف استعمارية، دون رغبة الشعوب المستعمرة، أما الغزو الفكري فهو لتصفية العقول، والأفهام، لتكون تابعة للغازي(١).

وقد يكون الغزو الفكري أشد وأقسى، لأن الأمة المهزومة فكريا، تسير إلى غـازيها، عن طواعيـة، وإلى جـزارهـا عن رضا، واقتنـاع، وحب، لاتحاول التمرد أو الخلاص.

وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة مـن صلة، حيث إن كلمة الغزو استعملت في معنـاهـا، وهي الإغـارة على أمـة من الأمم لـلاعتـداء عليها، وانتهابها، ولكن عن طريق الفكر وتدمير القوى المفكرة فيها، وهـذا مـا لفتـت إليـه كلمـة : الفكـر، التي تطـابـق معنـاهـا في العربية، معناها في المصطلح (٢)..

ويمكن أن يقال أيضًا : إن المصطلح استعـار كلمة «الغزو» للفكر، لما بينهـا وبين الغـزو في الحرب من عـلاقـة، في نهب الشعـوب، وتدميرها، والسيطرة عليها.

ويمكن أن يقـال أيضـًا : إن مصطلـح «الغـزو» مجاز على التشبيـه بالحرب الفعلية، في التدمير، والتخريب، والانتهاب، والسيطرة على الشعـوب.. ولهذا شـاع استعمال هـذا المصطلـح، وأضرابـه من المصطلحات، التي تدل على هذا المعنى، وتسير في فلكه (٣)..

١ـ المصدر السابق، ص ٦٨٠، بتصرف.

٢ ـ انظر : المصدر السابق، ص ٦٨١ مع تصرف وإضافة.

٣ ـ انظر : المصدر السابق، ص ٦٨١ مع تصرف يسير.

وممـا يسترعـي الانتبـاه، أن بعض العلماء والبـاحثين : ينكـرون، ويستنكـرون وجـود «الغـزو الفكـري». معتبرين الحديث عنـه مجرد «وهم» من الأوهام.

وهـؤلاء العلماء إنما ينطلقون من تصـورهم لعالم اليـوم، باعتبـاره، رغم الحدود الـدوليـة السيـاسية، والحواجـز الجغـرافيـة وبسبب من التقدم الهائل في ثمـرات «ثورة الاتصال» ينطلقون من تصـورهم لعالم اليوم بـاعتباره «وطنًا واحـدًا» لحضارة واحدة، يسمـونها : «حضارة العصر» أو «الحضـارة العالميـة» أو «الحضارة الإنسـانية» ويتصـورون الأمم، والشعوب، والقوميات، مجرد درجات ومستويات في البناء الواحد، لهذه الحضارة الواحدة.

ومن ثم فليس في هـذا التصـور حـدود ــ لها حرمـة الحدود ــ تميـز «أوطاناً» متعـددة، لحضارات متميزة.. ولهذا فإن عبور الفكـر ـ كل الفكر ـ للحدود ليس فيه عندهم شبهة «غزو» ولا أثر «عدوان» (١)

وهذا التصور يُروَّجُ له بشتى الأساليب، فثمة دعوة إلى «فكر عالمي» وهناك دعوة إلى أن الحضارة الحديثة «حضـارة عالمية» وهناك دعوة إلى «ثقافة عالمية».

فحركة «البهـائية» التي نشأت سنة ١٢٦٠هـ ــ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي، واليهودية العالمية، والاستعمار الإنجليزي، تزعم أنها جـاءت بدين عـالمي جمع : البـوذية، والبرهميـة، والزرادشتيـة، والمانـوية، والمزدكيـة، والفرق البـاطنية، واليهـودية، والنصرانيـة،

---

١ ــ الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٦، ط. الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، ١٩٨٨م.

والدهرية. وهذه الدعوة تجد رواجاً. (١)

وهنـاك علماء ومفكـرون، ينكـرون أن يكـون عـالم اليـوم، وطنـاً حضاريًّا واحدًا. لحضارة عالميـة واحدة. . وهؤلاء العلماء يَدْعُون إلى ضرورة احترام «الحدود الحضاريـة». . لأن العالم في تصـورهم : هو أقرب مـا يكون إلى «منتدى عـالمي لحضارات متميـزة» تشترك أممها في عضـوية هـذا المنتـدى، ومن ثم فإن بينهـا مـا هو «مشترك حضـاري عام». . وأيضا، فـإن هذه الأمم تتمايز حضاريًّا. . الأمـر الذي ينفي الـوحـدة الحضاريـة، ويستـدعي الحفـاظ على «الهويات» الحضـاريـة المتميـزة. . لا لمجـرد، الحفـاظ عليها ــ رغم أهميتـه ــ إنما لأسبـاب وطنية، وقـومية، وعقـدية، تلعب دورهـا في إنهاض أمم كثيرة، من كبـوتها وتـراجعها، لما لهذه الخصـوصيـات، من قـدرات على شحن شعـوب هذه الأمـم، بالكبريـاء المشروع، والطـاقـات المحركـة، في معـركـة الإبـداع. . ولما للتعدديـة من دور في إثـراء مصـادر العطـاء العالمي»(٢).

وهؤلاء العلماء الـذين ينكرون أن يكـون عالم اليـوم وطنًا حضـاريًّا واحدًا، لحضارة عـالمية واحدة، يذهبون إلى أن التعدديـة الحضارية، تكشف وتعري، روح الهيمنة، والعـدوان، والاستعلاء، التي تخفيها الحضارة المتغلبـة، على عالمنا المعـاصر. وهي الحضارة الغـربية، تحت ستار : «وحدانيتها. . وعالميتها. . وإنسانيتها».

---

١ ــ انظر : الندوة العـالمية للشباب الإسلامي، الموسوعـة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٦٤، ط. الرياض، ١٤٠٩هـ.

٢ ــ انظر : الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٧ بتصرف.

كما أن هذه التعددية تقوم بدور فعـال، في إذكاء روح المقاومة، عند الأمم المستضعفة حضاريًّـا، ضد السمات والقسمات التي مثلت وتمثل «مأزق الحضارة الغـربية» الـذي يمسك اليوم بخنـاق إنسانها، وذلك حتى لاتعم مأساته كل بني الإنسان؟ (١).

هؤلاء العلماء يعترفـون بوجـود : «الغزو الفكـري»، وينبهون على مخاطره التي تعددت، وتكاد تحيط بالمجتمعات الإسلامية . .

وهؤلاء العلماء : يرفضون دعوى «الوطـن الحضاري الواحد لعالمنا المعاصر» ودعـوى «الحضارة العـالمية الواحـدة» لهذا الوطن الـواحد، ويقدمون بـديًلا لها : دعوى أن عالمنـا هو أقرب ما يكـون إلى «منتدى عالمي لحضارات متميزة» وأن الأمم المستضعفـة حضاريًّا، لابد لها من النضـال الحضـاري، ضـد نـزعـة التفـرد، والهيمنـة، التي تمارسهـا الحضارة الغربية المتغلبة ـ بـالاستعمار القديم والجديد ـ على غيرها من الحضارات . . فـالتعدديـة لا الواحـدية، هي الحقيقـة الممثلة للـواقع الحضاري، في الـواقع الذي نعيش عليـه . ومن ثم فإن هنـاك حالات لتعدي «الحدود الحضارية» . تمثل «غزواً فكرياً» لاشك فيه . (٢).

وهذا التصـور يؤيده واقع حيـاة الشعوب، فـالذين يعايشـون حياة الشعــوب، والأمم ذات الحضـارات الغنيــة، والتـاريخ القــديم، والتراث العـريق، . . أو يغوصـون في تـراث هذه الأمم وفلسفتهـا، ومذاهبها ، وتقاليدها، وأعرافها . . يدركون أن عالمنا به ـ حقاً ـ أمم متعددة، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة .

---

١ — المصدر السابق، ص ٧.

٢ — انظر : الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٨.

وإننا إذا نظرنا في مذاهب هذه الأمم وأعرافها، وفي معايير الحلال والحرام، والمشروع والممنوع لدى أبنائها، وفي موازين الأذواق والحاسة الجمالية، وفي تصوراتها لمكان الإنسان من الكون، وتصوراتها لمصيره بعد الموت، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة . . إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، في هذه القضايا الأمهات، أدركنا السمات التي تمايز بينها ـ جنبًا إلى جنب ـ مع سمات تشترك فيها، فتجمع بينها (١).

ولا يخفى أن الباحث الذي يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري، إلى حيث تضرب بجذورها في أعمق أعماق التاريخ . . حيث كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا في الفكر الإنساني، كان لهم تمايز حضاري(٢).

ولعل نظرة فاحصة، إلى أمم مثل : الصين . . والهند . . واليابان، ستفضي بالباحث إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفي النظرة للكون وتصوره، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات . .

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية، منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة . . والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج هذه المواريث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام ـ بعد الإحياء

---

١ ــ المصدر السابق، ص ٨، ٩.

٢ ــ راجع : الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ٧٨، ط. دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

لهذه المواريث ــ كثمرة لانـدماج هـذه المواريث في الفكر الإسـلامي، الذي استصفـاها وطورهـا وفقًا لمعـاييره(١). حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة، ولكن إضـافاتهم للأصـول التي نقلوا عنهـا، تشهد بأنهم زادوا، وابتكـروا، لأنهم كانـوا ينظرون بعين إلى الثقـافة اليـونانيـة، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية(٢).

على أن الذي ينبغـي أن نقف عنده : «أن التصـور الذي يـرى العالم وطناً واحداً لاغزو لفكر فيه، تصور يقوم على انتصار الحضارة الغربية المتغلبة، التي تعمل على مسخ الحضارات العريقة».

إذن : لابد من التصـور، الذي يقـوم على أن الفكر إذا نظرنـا إليه، على المستوى العالمي الإنساني، وجدنـا في هذا الفكر : «ما هو مشترك إنساني عـام» لايختص بحضارة بذاتها، وفي هـذا الفكر أيضا مـا يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز في الفكر، بين ما هو مشترك إنساني، وبين ما هو خصوصية حضارية، إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلـوم التي مـوضـوعهـا الطبيعـة وظـواهـرهـا، والمادة وخصـائصها، هي من قبيل الفكـر، الذي هـو مشترك إنساني عـام، وذلك لأن مناهجهـا تتميز بـالحياد العلمي، ولأن التجـربة الملمـوسة بـالحواس الماديـة، هي السبيل لاكتشـاف حقائق هـذه العلـوم، تلك الحقـائق التي هي بنت الـدليل، والتي لاتختلف بـاختلاف مـذاهب،

---

١ ــ أنظر : الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٩ بتصرف.

٢ ــ أنظر : الـدكتور توفيق الطويـل، الحضارة الإسلامية والحضـارة الأوروبية، ص ١٥١ ط. مكتبة التراث الإسلامي مصر. ١٩٩٠م.

وعقائد، وأجناس، وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهي لاتتغاير بتغاير القوميات، والحضارات، بل هي واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها ــ المادة وظواهرها ــ واحدة هي الأخرى، لاتختلف ولا تتغاير باختلاف، وتغاير الحضارات. فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها، وقوانينها باختلاف الحضارات.. قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها. لكن حقائق علومها، أي «فكرها العلمي» سيظل واحدًا، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد، والحضارات(١).

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة، أن يصنف هذه العلوم، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات، وروابط.

والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض. ويعتمد بعضها على بعض. ولهذا كانت الحضارات الإنسانية، ليست ملكًا لأمة بعينها. ولا هي وقف على جماعة من الناس، لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب(٢).

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها، على نحو ما، وإلى حد كبير العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات التي ترشد أداء الإنسان، وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد

١ ــ انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ١٦.
٢ ــ انظر: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية ص ٩٢.

والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل، فإن تجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، قد تكون صالحة في أحيان كثيرة للاقتباس، وللتمثل، والاستلهام.

هذا عن العلوم الطبيعية، والتجارب المادية، التي تمثل حقائقها وخبراتها فكرًا عالميًا، هو من صميم «المشترك الإنساني».

أما الشق الآخر من الفكر، الذي يدخل في صميم الخصوصية الحضارية، التي تتمايز بتمايز الحضارات، فهو ذلك الذي ينطلق من العقائد والمذاهب والفلسفات.

فكما تميزت علوم «المادة» الثابتة بالعالمية، فغدت حقائقها، وقوانينها «مشتركاً إنسانياً عاماً» تميزت، وتتميز علوم العقائد، والمذاهب، والفلسفات، بالخصوصية الحضارية، التي تجلعها وثيقة الصلة بطبائع الأمم، ومعتقدات الشعوب، وطرائقها في الحياة(١).

الغزو الفكري

لقد وضح لنا: أن هناك «غزو فكري» مقصود، يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ومذاهبها، وحضاراتها، لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع.. ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الإنسانية، وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة

١ — انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ص ١٧، ١٨ بتصرف.

القـول، والدخـول إلى المخـاطب، من نقطة الضعف، والاستغفـال لإغرائه، والإيقاع بـه، والإيحاء إليه بسلامة الفكـرة، وصحة المفهوم المزيف الذي تحمله كلمات الغزو.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيـال، وتساقطت في هاويـة الضلال والانحـراف، والفسـاد الخلقي، والعقـدي، والاجتماعي، بسبب تصورات «الغزو» المزخـرفة الخداعة، التي يرقـص السذج، والجهال على نغم إيقاعها، ويفتنون بسماعها وأناقة ظاهرها.

ولكم عـانى الإنسان والشعوب مـن أولئك الذين يصنعـون «الغزو الفكـري»، ويصدرونـه في موجـات، تقتحم الديـار والبيوت، لقـد قيدت الإنسانيـة إلى هاوية الضلال، والانحراف. ولقـد كان «للغزو الفكــري» في كل جيل، وفي كـل عصر دوره التخــريبي، في حيــاة الناس، إلا أن البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها وضعا كان فيه «للغـزو الفكري» خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومـؤسسات، كعصرنا الحاضر هذا، الذي اتخذ فيه «الغزو الفكري» صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبـدأ، الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعـون عنه، وينقادون له..

وقضية الغزو الفكـري، أصبحت اليوم، من أشد القضـايا خطرًا، وتبدو ظواهـر هذا الغزو المدمر، في قلـوب وعقول كثير من المثقفين، في هذا العصر واضحة بينة، والسلاح الذي يستعمله «الغزو الفكري» مـدمـر قتّال، يـؤثـر في الأمم والمجتمعـات، أكثر مما يـؤثـر المدفع والصـاروخ والطائرة، وقـد ينـزل إلى الميدان، ويعظم خطـره، حين

تخفق وسائل الحديـد والنار، في تحقيق الهدف، والوصول إلى الغـاية، والخطر الـذي يحتجنه هـذا الغزو أكثر بكثير من قتـل الأفراد، بل من قتل جيل بأسره. إذ يتعـدى ذلك إلى قتل أجيال متعـاقبة، والسـلاح الذي يستعمله هذا الغزو هو سلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكلم، والخديعة، في العرض(١).

ومما لاينكر : أنه لم يواجه دين من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، مثل مـا واجه الإسـلام من تحديـات، فقد واجـه الإسـلام منذ فجـر تـاريخه، تحديات عنيـدة من مخالفيـه، فقـد واجه المشركين في مكـة، واليهـود في المدينـة، ثم لما فتحـت الأمصـار، وانتشر الإسـلام فيهـا واجهت الثقافة الإسلامية أفكـاراً شعوبية إلحادية، وفلسفات وثنية، كالفلسفات الفارسية، واليونـانية والهندية، وغيرها. ولكن الإسلام ثبت أمـام هـذه التحـديـات، وانتصر عليهـا. فقـد كـان المجتمع الإسلامي آنـذاك يعي الإسلام وعيًا كـاملًا، ويدرك أخطـار الأفكار والاتجاهات التي كـان يطرحها الفـلاسفة والـزنادقة، ومـا تحمله من شبهـات، وهي في جملتهـا تعمل على نقـل الفكـر، من مجال أصـالـة الفطرة، ومنطق العقل الصحيح، وطريق التـوحيد، وطابع الإيمان، إلى مجال الإلحاد والإبـاحيـة. غير أن المجتمـع تصـدى لهم، وأخـذ يكشف زيفهم، ويبين ما انطوت عليه قلوبهم من كيد، ولم تستطع أن تنال من الإسلام عبر العصور.

على أن من أخطر هذه التحديات هي تلك التي تواجهها المجتمعات

---

١ — راجع : إبراهيم النعمـة، المسلمون أمـام تحديات الغزو الفكـري، ص ٧ ط. شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق ١٩٨٦م.

الإسلامية اليوم، وهي تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حينًا، والمستترة أحيانًا، هذا التحدي الذي يتمثل حاليًّا بالغزو الفكري الغربي(١).

أسباب الغزو الفكري

أولاً : العداء الصليبي للإسلام والمسلمين :

والباحثون يدركون أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي، في مرحلتين من مراحل تاريخها : فكانت مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد «توماس إلاكويني»(٢) تريد اكتشاف هذا الفكر، وترجمته . . من أجل إثراء ثقافتها. بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات، التي هدتها إلى حركة النهضة، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وفي المرحلة العصرية والاستعمارية، فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية، مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية أخرى، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية(٣).

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد

---

١ — عزالدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية، ص ٣١ دار الفرقان، عمان، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الأردن.

٢ — توماس إلاكويني ولد سنة ١٢٢٦م وتوفي سنة ١٢٧٤م ويعتبر من أعظم الفلاسفة واللاهوتيين في العصر المدرسي المسيحي، وفي ١٣٢٣م منحته الكنيسة الكاثوليكية لقب القديس.

٣ — مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ص ٨، ط دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩م.

الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين :

الدافع الأول : دافع الدين، والعصبية العمياء، التي أثارها رجال الكنيسة، في شعوب أوروبا، مفترين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرضين النصارى أشد تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار ــ أي المسلمين ــ فكانت جمهرة المقاتلين، من جيوش الصليبيين، من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية، من ديارهم عن حسن نية، وقوة عقيدة، إلى حيث يلاقون الموت، والقتل، والتشريد، حملة بعد حملة، وجيشًا بعد جيش.

والدافع الثاني : دافع سياسي استعماري، فلقد سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين من حضارة، وثروات، فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلا الرغبة في الاستعمار والفتح، وشاء الله أن ترتد الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة(١).

ويكاد يكون معروفًا، أن أوروبا شنت ثمان حملات صليبية على الشرق الإسلامي، وقد بدأت الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الحادي عشر، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، أي ما يقرب من مائتين وخمسة وعشرين عاماً في ثماني حملات من الحملات المدججة بالعدد والمعدات، ويصف كاهن مدينة (لوبوي ريموند واجيل) سلوك الصليبيين حينما دخلوا على القدس، فيقول : «حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم، فكان أقل ما أصابهم، وبقرت بطون

١ ــ الدكتور مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٨٧، ١٨٨ ط. دار المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه»(١).

وروى الكاهن نفسه خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ـ رضي الله عنه ـ ويقول في هذا: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح، كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها. وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة، لايطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمنشفة(٢).

ويذكر التاريخ أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس في ١٥ مايو عام ١٠٩٩م، قد ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم، حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء، وفي انطاكية، قتلوا أكثر من مائة ألف مسلم.

فالأمر خطير، إنه حقد الشر على الحق، والرذيلة على الفضيلة، وعداوة الشرك للتوحيد، وخصومة الضلال للهدى. (٣)

---

١ — انظر: د. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٢,٤ ترجمة عادل زعيتر ط. الثانية ١٩٤٨م.
٢ — لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج ١ ص ٦٠، ترجمة نويهض.
٣ — راجع نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية، ص ١٦٤ط. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ بيروت.

وقد صمدت الأمـة الإسلامية في وجه هـذه الحروب الوحشية التي سلبت، ونهبت، وقتلت وفتكت.

وبعد مضي أكثـر من قرنين من حـروب دامية، اشتـد وطيسها، بين كتائب الإيمان، وبين جحافل الشر، ارتـدت الحروب الصليبية، وقد باءت هذه الحمـلات بالإخفاق والهزيمة، فالقـديس «لويس التاسع» قـائد الحملة الصليبيـة الثامنـة، وملك فرنسـا، وقع أسيرًا في مدينـة «المنصورة» في مصر. ثم خلص من الأسر بفدية، ولما عاد إلى فرنسا، أيقن أن قـوة الحديد والنار لاتجدي نفعًـا مع المسلمين الذيـن يملكون عقيدة راسخة، تدفعهم إلى الجهـاد، وتحضهم على التضحية بالنفس، وبكل غال.

إذن: لابد من تغيير المنهج والسبيل، فكـانت توصيـاته: أن يهتم أتبـاعـه بتغيير فكـر المسلمين، والتشكيك في عقيـدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض، وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديـد والنار إلى ميدان الفكر(١)، لأن القضـاء على الإسلام أو تحويل المسملين عـن دينهم، لايمكن أن يأتي عـن طـريق القـــوة المادية، والغزو المسلح.

ولقد بدأت حركـة «الغزو الفكري» من منطلق ضرب المسلمين عن طريـق الكلمة، بعد هـزيمة الحروب الصليبيـة ـ كما وجههم «لـويس التـاسع» ــ والعمل على تـرجمة القرآن، والسنـة، وعلـوم المسلمين، للبحث عن الثغـرات التي يـدخلـون منهـا إلى إثارة الشبهـات، وقـد

١ ــ إبراهيم النعمة، الإسلام أمام تحديات الغزو الفكري، ص ١٢.

أعلنوا صراحة أن الإسلام هو عدوهم الأول، وأن أكبر غاية لهم هي ضرب وهدم قواعده»(١) لقد فشلت الحروب الصليبية من الوجهة الحربية. . لكن بقي «الغزو الفكري» ينفث سمومه، ويثير الشكوك، وبقيت النزعة الصليبية تتوارى خلف ستار من الديبلوماسية، والرياء السياسي، تحرك ما تريد تحريكه، وتقف خلف الغزو الفكري، بكل ما لها من قوة، وعلم. .

ولا شك أن العداء الصليبي للإسلام، هو الدافع الأساس والأصيل «للغزو الفكري» الذي تسلط على مجتمعات الأمة الإسلامية، ونجد أن هذا العداء أخذ «شكل السعار الوبائي» لدى الأمم الغربية «الصليبية» فأخذوا مستميتين يوزعون السموم، ذات اليمين، وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون الحقائق، ويدبرون المكائد، ويتصيدون السقطات، ثم يدخلون في روع أنفسهم، وبني جلدتهم أنهم أرقى عنصرًا، وأفضل عقلاً، وأفلح دينًا، وأنهم أوصياء على البشرية، وسادة الإنسانية، وهداتها، ومرشدوها»(٢).

وقال «وليم غيفورد بلغراف» الإنجليزي المسمى بالحرباء: الكلمة المشهورة التي يلخص فيها عداء الغربيين للإسلام: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة، عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي، يندرج في سبيل الحضارة، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»(٣).

---

١ — أنور الجندي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري، ص ١٢٦، ط. دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٨٢م.

٢ — الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٧٠٤، ٧٠٥.

٣ — انظر: المصدر السابق.

وجلاد ستون رئيس وزراء بريطانيـا يقول : «ما دام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطـرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»(١).

ويـرى غاردنـر : «أن القوة التي تكمن في الإسـلام هي التي تخيف أوروبا»(٢).

ويـوضح هـذا العداء، ويـذكـر بعض أسبـابه المستشرق «بيكـر»، فيقول : «إن هنـاك عداءً من النصرانية للإسـلام، بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى، أقام سدًا منيعًا في وجه الاستعمار، وانتشـار النصرانيـة، ثم امتـد إلى البـلاد التي كـانت خـاضعـة لصولجانها»(٣).

ويقول في هـذا المعنى «لورانس براون» : «إن الخطـر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قـدرته على التوسع والإخضـاع، وفي حيويته، إنـه الجدار الـوحيد في وجـه الاستعمار الغـربي»(٤) ثم بين «لـورانس براون» «أن خطر المسلمين هـو الخطر العالمي الوحيـد في هذا العصر، الذي يجب أن تجتمع لـه القوى، ويُـجَـيَّش له الجيـوش، وتلتفت إليه الأنظار، فيقول حاكيًـا آراء المبشرين : «إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهـودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهـود في دينهم، إنه

١ — نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية ص ١٦٧.

٢ — عبـدالرحمن حسن حبنكـه الميداني، أجنحـة المكـر الثلاثـة، ص ١٣، ط. بيروت دار القلم ١٩٧٧.

٣ — انظر : المصدر السابق، ص ٧٠٥.

٤ — راجع المصدر السابق ص ٧٠٥ وانظر عمر فروخ والخالدي، التبشير والاستعمار ص ١٨٤ ط. المكتبة العصرية.

دين دعـوة، إن الإسـلام ينتشر بين النصـارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كـان لهم كفاح طـويل في أوروبا ــ كما يراه المبشرون ــ وهـو أن المسلمين لم يكـونـوا يـومـاً مـا أقليـة مـوطـوءة بالأقـدام». . ثم يقول : «إننا مـن أجل ذلك نرى المبشرين، ينصرون اليهـود على المسلمين في فلسطين، لقـد كنـا نُخَـوَّف من قبل بـالخطـر اليهودي، والخطـر الأصفر «باليابـان وتزعمها على الصين» وبـالخطر البلشفي، إلا أن هـذا التخويف كلـه لم يتفق (لم نجـده ولم يتحقق) كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصـدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم (١) عـدونا الألـد، ثم رأينا البـلاشفـة حلفاء لنـا، أما الشعـوبَ الصفر، فإن هنـاك دولاً ديمقراطية كبيرة، تتكفل بمقـاومتها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام»(٢).

ولقـد اشترك الاستعمار الغـربي، والجهـد التبشيري، والحقـد الصليبي، في حـرب المسلمين، وتشتيت تـراثهم، ونهب ديـارهم، بحيث أصبح يخيم عليهم كسحابـة سوداء، من البغضاء والكـراهية، يتمثل هـذا فيما حـدث في عـام ١٩١٨م عنـدمـا دخل اللـورد اللنبي القـدس، وأعلن : «الآن انتهت الحروب الصليبية» كـان هذا القـائد يعبر عن الروح الأوروبيـة، الروح الصليبية، التي ظلت متـوهجة في أعماقهم طـوال تلك الحقب، وبنفس الحقد الـذي صدر عن الجنـرال الإنجليزي اللنبي، كان مسلك الجنـرال الفرنسي «غورو» قائد الجيش

١ — الواقع أن اليهـود لم يضطهدهم المسلمون، ولكنهـم هم الذين اضطهدوا المسلمين وتـآمروا عليهم.

٢ — انظر : الدكتور تـوفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بـالحضارة الغربية، ص ٧٠٦

الفرنسي في دمشق حين ذهب إلى قبر صلاح الـدين، بعد أن جاء راكبًا سيارة مكشوفة، وترجل إلى القبر، وقـال قولته المشهورة: «نحن هنا يا صـلاح الدين» وفي اليوم التـالي عمل الشيء نفسه في حمص، حيث ذهب إلى قبر «خالد بن الـوليد» ـ رضي الله عنه ـ وقـال: «نحن هنا يا خالد»(١).

هـذا الحقد، والضغن، والمقت، كـان سببا قـوياً، في الإغـارة على المسلمين، بشتى الأسـاليب، والطـرق والأشكال، والألـوان، ومـا زالت تلك الموجة، تعلو، وتشتـد، وتمتد، ثقافياً وفكـرياً، لتخريب قواعد الإسـلام، والأخلاق الإسلامية، وإشاعـة الأفكار والتيارات الهدامة (٢)، وشغل الأمة الاسلامية، بكـل ما هو هامشي في حياتها، حتى لاتدرك اليقظة الواعية، ولا تنتبه إلى ما يحاك حولها.

لقد وجد الغربيون أن خير طريق لغزو العالم الإسلامي وإخضاعه، هـو سلوك الغـزو الفكـري، فوضعـوا الخطط، وحـاكوا المؤامـرات للغـارة على الأفكـار والمفـاهيم الإسـلاميـة، وعلى كل مـا لـه صلـة بالإسلام، حضارة وثقافة، وصـارت قاعدتهم التي ارتكزوا عليها: «إذا أرهبك عـدوك فأفسـد فكـره ينتحـر بـه، ومن ثم تستعبـده» وانطلقت الصيحة إلى ضرورة نقل المعركة من ساحة الحرب إلى ميدان

---

١ ــ انظر: الدكتور توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠٧. وانظر كذلك: نجيب الكيلاني، الإسلامية والقـوى المضادة، ص ١٤٢، ط. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ.

٢ ــ راجع: الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠٧، وراجع أنور الجندي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر، ص ٢٨٦.

الفكر والمعرفة(١). فأغاروا على حضارة الإسلام وثقافته سعيًا وراء هدم عقائده وأفكاره، ونشر الأفكار الغربية بديّلاعنها.

ولاشك أن الغزو الفكري أعمق أثرًا، وأشد فتكًا في حياة الأمة من الغزو المسلح، لأنه يتسلل إلى عقولها وقلوب أبنائها، ذلك أن الأمم تقاس بمقوماتها العقدية، والفكرية، وقيمها الخلقية.

فالغزو الفكري الأخلاقي أخطر من الغزو المادي المسلح، لأنه يمضي بين الناس، في صمت ونعومة وخفاء في الأهداف، مما يجعل الناس تدريجياً يتقبلون كل جديد، ولو خالف قيمهم وعقائدهم وأفكارهم دون معارضة، ويتقبلون الذوبان في بوتقة أعدائهم، وهم ينظرون ولا يشعرون..

وإذا كان العداء الصليبي للإسلام والمسلمين سبباً رئيساً دفع بالغرب إلى «الغزو الفكري» للمجتمعات الإسلامية فإن هناك أسباباً أخرى - غير العداء الصليبي - ساعدت على انتشار «الغزو الفكري» وعملت على هزيمة المسلمين أمام هذا الغزو. ونجد ذلك واضحاً في السبب الثاني..

ثانياً: الاستعمار الغربي للمجتمعات الإسلامية:

لقد تعرض المجتمع الإسلامي في آسيا، وأفريقيا، للطابع الأيديولوجي، للمجتمع الأوروبي، سواء الحديث منه في القرن التاسع عشر، أو المعاصر في القرن العشرين، ولم تكن للمجتمع الإسلامي مناعة كافية في رفض هذا الطابع وتحديه، وعدم تقبله.

---

١ — انظر: عزالدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية ص ٣٣. وراجع عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ص ١٤.

فتعرض للغزو الأوروبي، من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته في التحرر والخلاص، من سلطة الكنيسة، وفي استرداد الإنسان الأوروبي حرية الحركة في التجارة، وفي شؤون المال على العموم، وحرية التفكير والتوجيه السياسي. (١)

وكان الوضع في البداية قبل الاستعمار تربصًا من جانب المجتمع الأوروبي بالمجتمعات الإسلامية، وانقضاضًا عليها من جانب، بينما كان استسلامًا من أي مجتمع إسلامي، تعرض للتربص والانقضاض، وقبولًا للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبي من جانب آخر (٢).

ومما هو مسجل في صفحات التاريخ: أن المجتمع الإسلامي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا: الهند في سنة ١٨٥٩م ومناطق الخليج الإسلامي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة ١٨٤٩م، ومصر في سنة ١٨٨٢م، والسودان في سنة ١٨٩٨م.

واحتلت فرنسا: الجزائر في سنة ١٨٣٠م، وتونس في سنة ١٨٨١م، والمغرب في سنة ١٩١٢م.

واحتلت إيطاليا: طرابلس الغرب في سنة ١٩١١م.

واحتلت هولاندا: جزر الأرخبيل الأندونيسية تباعاً منذ عام

---

١ — انظر: الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي، ص ٥١، ٥٢ بتصرف، ط. دار الفكر، ١٩٧٣م.

٢ — المصدر السابق ص ٥١.

١٩٠٣م.

وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر في سنة ١٨٧٣م وسيطرت بإشرافها على المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا، وهي : أذربيجان، وكازاخستان، وأوزبيكستان، ونوركيستان، وكزيخستان. . سيطرة تامة في القرن التاسع عشر، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبي سوى : اليمن، والحجاز، وإيران، ووسط تركيا. (١)

ولا يخفى أن وقوع المجتمعات الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار زاد من اتساع السوق الاستهلاكية لمنتجات الغرب الصناعية، وهذا أدى إلى تفوق الصناعة الغربية. وكلما قوى المجتمع الأوروبي وتفوق صناعيًا، كلما زادت رقعة استعماره في قارة إفريقيا وقارة آسيا . .

وكلما زادت قبضة أوروبا على ما تم استعماره، وكلما اتسع نفوذها السياسي والاستغلالي، كلما زاد ضعف المجتمع الإسلامي، الذي وقع تحت سلطة الاستعمار، وزادت تبعيته وتقبله لما يأتي من الغرب.

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبي لاستعمار المجتمعات الإسلامية، كان في قمة مجده، بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة، واستقلاله بالسلطة الزمنية، وبالحرية الفردية، في التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياسية، كما كان في أشد الأوضاع حرصًا على اتجاه (العلمانية) كمثال للإنسانية . .

استصحب الاستعمار معه هذا الاتجاه، بما يستتبعه في الحكم،

---

١ — راجع هامش ص ٥٢ من المصدر السابق.

والتوجيه، والتشريع، والاقتصاد، في المجتمع الإسلامي الذي يتمكن منه.

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمانية، ومحاولة تطبيق هذا الاتجاه، في المجتمع الإسلامي، وهو مجتمع يغاير في خصائصه، وتاريخه، وواقعه.. المجتمع الأوروبي، اضطر هذا الاستعمار إلى أن يسلك طريقاً يمكنه من هذا التطبيق، وهو عزل المجتمع الإسلامي كلية عن ماضيه، وعن تراثه العقلي، والروحي، والتوجهي، والسلوكي..

فإذا ما تم عزله، أصبحت قيادته ميسرة، وطيعة للمستعمر، وبالأخص للأجيال التي تنشأ في ظل هذه العزلة. (١)

ثالثاً: تقدم الغرب العلمي:

لقد كان الغرب يملك تقدمًا علميًا فائقًا، وتقدمًا ماديًا هائلاً، وعبقرية تنظيمية مبدعة، وروحًا من الجلد والصبر على العمل والإنتاج، وروحاً عملية في مواجهة المشكلات من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ. (٢)

ولاشك أن التقدم العلمي المذهل للغرب، كان قويًا دفاقًا، له من القوة والانتشار والاستيلاء، ما بهر العقول، وفتن الألباب، ولا غرو فقد بز بذلك كل تقدم علمي عرفه العالم، وسمعت عنه البشرية في التاريخ المترامي الأطراف، واستطاع أن يخرج من الأسرار، ويكشف من الاختراعات، ما جعل أبصار الناس وعقولهم تتعلق به (٣)،

١ — راجع المصدر السابق.

٢ — انظر: محمد قطب، واقعنا المعاصر، ص ٣٤٣، ط. مؤسسة المدينة، جده ١٤٠٧هـ.

٣ — راجع الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٥.

وخاصة أن هذا العلم أصبح في خدمة الإنسان، في كثير من مناحيه، فاتجهت الأنظار، والعقول، والقلوب إلى الغرب، تتطلع إلى ما فيه من اكتشافات تأتي بجديد. (١)

لقد واجه العالم الإسلامي مشكلة تقدم الغرب العلمي، وجهاً لوجه، وهذا التحدي السافر على طريق واحد. وهو صاحب الحضارة العريقة، والرسالة الدينية الخاتمة، وصاحب الشهادة على البشرية، بعد ما انسحبت كل الديانات والمذاهب القديمة، متوارية من نوره الوهاج، وحجته المشرقة، وصاحب الرقعة الواسعة، والثقافة المنتشرة، والقوة الكبرى التي كان يحسب لها ألف حساب. فكان تحدي الحضارة المادية للعالم الإسلامي، أعظم من تحديها لأي أمة، ولأي حضارة، ولأي ثقافة، وقد صاحب تلك الحضارة مذاهب فكرية، وفلسفات مادية، ونظم سياسية، واقتصادية، وعمرانية، واجتماعية، وخلقية، وكان لابد أن ينظر الناس ـ وخاصة الشعوب المتخلفة ـ إلى هذه المذاهب، والفلسفات، والنظم نظرة تقدير واحترام، لأنها نتاج تلك الشعوب المتقدمة، وحصاد تلك الأمم المتطورة التي فتتت الذرة، وصنعت الطائرة والصاروخ، وأدارت الأقمار(٢) وغزت الفضاء، لتراقب سلوكيات الإنسانية كلها ـ وخاصة تحركات المجتمعات الإسلامية ـ ولتكتشف من الفضاء الواسع، ما يزيدها من العلم تمكينًا وأصبحت المجتمعات الإسلامية تمجد الحضارة الأوروبية، والتقدم العلمي والصناعي، واستطاع

---

١ ــ أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامي، ص ١٥٠.

٢ ــ الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٦.

الغرب أن ينقل الإنتاج المادي إلى المجتمعات الإسلامية، في أفريقيا، وفي آسيا، لاستخدام هذا الإنتاج في تيسير الحياة، والتغلب على الصعوبات والمشاق التي تصحب عادة الحياة الإنسانية المتخلفة، أو البدائية، وذلك ليكون شواهد مادية، ترى وتختبر في التطبيق وفي واقع الحياة.(١)

رابعًا: الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي:

لقد أصيب المجتمع الإسلامي بالضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، وذاق من جراء تلك الإصابة مرارة التأخر، والضعف الفكري، ما أصيبت به أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، إلا كانت الحالة، انحطاطًا في التفكير، واهتمامًا بالخرافات والأساطير.

والتفكك الاجتماعي نتيجة حتمية للضعف الفكري، لأن الضعف الفكري لا يكشف للإنسان مخاطر الانزلاق في الهاوية، ولهذا نجد أن المجتمعات الإسلامية، ابتليت بالطوائف المتعددة والمتناحرة، والمذهبية التعصبية، وتعدد السلطنات والدويلات، التي قامت على أساس شعوبي أو مذهبي، في هذا المجتمع أو ذاك.

وهذا كله جر المجتمع الإسلامي إلى فوضى قاتلة، وتناحر حقيقي، ونهب وقتل، دون رادع أو وازع.. ومجتمعًا كهذا لابد وأن يتعرض لسيطرة المتربصين به. لقد كانت السلطة السياسية في المجتمعات الإسلامية تعيش في وضع مقلوب، «وفي ذلك الوضع لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأي امبراطورية على وشك السقوط، بغض النظر عن اللافتة التي ترفعها، سواء كانت امبراطورية فارسية، أو بيزنطية، أو

١ — الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ٥٤.

رومانية، أو عباسية. لابد أن تتفشى الرشوة، وتكثر مصادرة الأموال، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية، مع الانحلال الخلقي، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذي يدق الأبواب»(١).

وأساس انهيار الأمم، يبدأ من الداخل، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجل بالسقوط. ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر، ويأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الثروة، وفي الجماهير، فتنشر الظلم، والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة»(٢).

لاشك أن الأمة الإسلامية عاشت فترات من حياتها، كانت سبباً في تأخرها وغفلتها، وطمع الطامعين في مجتمعاتها.

وأي أمة تضعف في أفكارها، ولا تعرف إلا القشور من أمرها، وتعيش في تناحر وتمزق، لابد وأن تسقط، وينال منها من كان يهابها.

خامساً: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة:

إن المجتمعات الإسلامية، حين أصابها الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، انشغلت بالتافه من الأمور، فقادتها التفاهة إلى التخلف عن ركب العلم، والتقدم، والحضارة.. ومعنى هذا، أن المجتمعات الإسلامية، انصرفت عن تعاليم الإسلام، التي تدعو إلى العلم، والمعرفة، واستعمال العقل، والفكر في كل ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلى الطريق السليم، «وواكب هذا الانصراف انحطاط في

---

١ — انظر الشيخ محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص ١١٠، ط. دار الشروق، بيروت.

٢ — راجع المصدر السابق، ص ١١٣.

القيم، ودعوات إلى الركون إلى المتع، والعبث بالأموال، إلى حد السفه و الجنون، والترف والفجور، حتى كان قواد هذا الركب في كل ناد، وكل صحيفة، مع جهل ضارب، ونفاق ناشب أظفاره، وفساد في كل مجتمع ونـاد، وتصـارع على كل تـافـه وخسيس من المادة، وخراب للذمم، وبيع للشرف، وكره للقيم، وضياع للحق، وهضم للحقوق، وذبح للفضيلة». (١)

وكان وضع البلاد الإسلامية، كما صوره شاعر تركيا الإسلامي الكبير محمد عاكف : «يسألني الناس أنك كنت في الشرق مدة طويلة. فما الذي شهدت ياترى، وما عسى أن يكون جوابي؟ إنني أقول لهم : إنني رأيت الشرق من أقصاه، فما رأيت إلا قرى مقفرة، وشعوبًا لاراعي لها، وجسورًا متهدمة، وأنهارًا معطلة، وشوارع موحشة، رأيت وجوها هزيلة متجعدة، وظهورا منحنية، ورؤوسًا فارغةً، وقلوبًا جامدة، وعقولاً منحرفة.

رأيت الظلم، والعبودية، والبؤس، والشقاء، والرياء، والفواحش المنكرة المكروهة، والأمراض الفاشية الكثيرة، والغابات المحرقة، والمواقد المنطفئة الباردة، والحقول السبخة القاحلة، والصور المقززة، والأيادي المعطلة، والأرجل المشلولة . .

رأيت أئمة لا تابع لهم، ورأيت أخًا يعادي أخاه، ورأيت نهارًا لا غاية له، ولاهدف، ورأيت ليالي حالكة طويلة، لايعقبها صباح

---

١ — راجع الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٩٦.

مسفر، ونهار مشرق»(١)

هـذا التخلف أضعف الثقـة بـالنفس، وأوقف عجلـة التقـدم والانطلاق في الشعـوب الإسلامية، وجعلهـا تعتمد في كل شيء على غيرها، إن التخلف العقلي لايكمن في عـدم الذهـاب إلى الجامعات، واكتسـاب المعـارف فقط، بقـدر مـا يكمن في التبلـد، والخمـول، والنوم، والرضاء بالدون، وموت الهمة. .(٢)

ومن المؤكد أن الأمة التي تفضل أو ترضى بالتواكل، والاستجداء، والكسل، والتبعيـة، أمـة لاتستحق الحيـاة الكريمـة، والحيـاة الحرة الكـريمة لاتتأتـى لأمة دون ثمن، والثمن هـو التضحيـة، ولا يتأتى لأمـة أن تشق طريقهـا في الحيـاة، وأن تستعيد وجـودهـا وكرامتهـا، وتعيد صنـع حياتها، دون أن تحاول جاهـدة أن تبني نفسها بنـاءً ايتفق مع الاعتداد بالذات.

وقد يكون من المسلمات البدهية : أن فقـر الأمة في جوهره وجذوره ليس فقـرا في السلاح والمعـدات، أو فقرا في المال والإمكـانات، وإنما يكمن في فقر النفوس وعجزها، وضعف الإرادة واضطرابها. .(٣)

فالتخلف عن ركب التقدم والحضارة، يعود بالمجتمعات الإسلامية إلى الانحطاط، ويقودها طواعيـة إلى الهلاك، كما تقاد الشاه إلى حتفها بظلفها، ولـذا كان هـذا التخلف عامـلاً من عوامل الغـزو الفكري،

١ — راجع المصدر السابق، ص ٦٩٦ وانظر أبـو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٣٥.

٢ — انظر : الدكتور توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٩٨.

٣ — انظر : الـدكتور أحمد عبدالرحيم السـايح، معارك حاسمـة في حياة المسلمين، ص ١٥٤، ١٥٥ ط. دار اللواء بالسعودية ١٤٠٩هـ.

الذي اجتاح البلاد والعباد . .

سادسًا : الفراغ العقدي :

من المؤكد لدى الباحثين، أن العقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقينًا عند صاحبه، ولايمازجه شك فيه، ولايخالطه ريب. ويذكر العقاد : أننا نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لاطريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعني بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره، إنما نعني بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس أو الصفحات . (١)

إن العقيدة التي يصح أن توصف بالعقيدة الدينية، هي التي لايستغني عنها من وجدها، ولايطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها، بمعتصم، واستقر فيها على قرار . (٢)

ومن يتأمل العقيدة الإسلامية، ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة، إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان، ويتخلص من الحيرة التي تواجه كثيراً من المفكرين . (٣)

والحقيقة التي أثبتها مئات السنين الحافلة بالأحداث، والخطوب، والمحن، حقيقة أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الشاملة، والعقيدة

١ — عباس محمود العقاد، العقائد والمذاهب مجلد رقم ١١، ص ٤٠٢ ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢ — المصدر السابق ص ٤٣١ .

٣ — انظر : الدكتور أحمد السايح، عباس محمود العقاد فيلسوفًا، رسالة «ماجستير» ص ١٦٦ .

المثلى للإنسان، والمجتمع، وهي رعاية للروح والجسد، وعمل للدنيا والآخرة، وجهاد في السلم والحرب، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم.

فالعقيدة ضرورة لاغنى عنها للفرد والجماعة.. ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتطهر نفسه.. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك، ويترفع وينهض..

فالفرد بغير عقيدة كالريشة في مهب الريح، تحوله يميناً وشمالاً، فلا يسكن له حال، ولا يستقر له قرار، وليس له جذور تثبته. (١)

والعقائد في الأمم تقف سدوداً بينها وبين الأفكار الوافدة، أو المذاهب المقتحمة، وتعطي أعماقًا للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقرارًا وثباتًا للإنسان في الحياة، أما إذا تركت الأمم عقائدها، وتخلفت عن غذائها الروحي، وعن عمقها الإيماني(٢)، فانها تصبح فريسة لمن هب ودب..

والباحث في أحوال الشعوب الإسلامية : يجد أنها لم تحسن التخطيط، ولم تستفد من الدروس، فانطلقت في سبيل الشهوات والملذات، والطوائف، والاختلاف، وتركت تعاليم الإسلام التي تدعو إلى الفكر، والعلم والحضارة.. فكان ما كان..

---

١ — انظر : محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية، ص ٢٥٧ ط. مكتبة المنار، الأردن، ـ وانظر كذلك الدكتور أحمد السايح، العقيدة والإنسان، مجلة الخفجي، السنة العشرون، العدد الأول، ص ٤، ٥، أبريل ١٩٩٠م السعودية ـ وانظر : كذلك أبوالحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٢١٨، ط. دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ.

٢ — الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠١، ٧٠٢.

لقد اتضح لنا أن «الغزو الفكري» الـذي تعرضت له، شعوب الأمة الإسـلاميـة ولا تزال تتعـرض، قـام على أسبـاب وبـواعث، دفعت بالغزو الفكـري إلى تكالب مسعور، وكان في الإمكـان أن ترد الهجمة الشرسة، ولكن كانت هناك عـوامل تنتشر في المجتمعات الإسلامية، ساعدت على توغل الغزو الفكري، وانتشاره بين الناس.

وقد سبق أن ذكرت أن من عوامل وأسباب «الغزو الفكري» :

* العداء الصليبي للإسلام والمسلمين.
* الاستعمار الغربي الذي أصاب بعض المجتمعات الإسلامية.
* تقدم الغرب العلمي.
* الضعف الفكري والتفكك الاجتماعي الذي أصاب المسلمين.
* الفراغ العقدي الذي دلت عليه سلوكيات المسلمين.

وقد تكون هنـاك أسباب اخرى : داخلية أو خـارجية، عملت على تمزيق الأمة الإسلامية، وقتل روح الأصالـة فيها والتجديد، والقدرة على مواجهة التحدي.

ولا يخفى أن التعرف على الأسباب، قد يدفع بالعلماء، وقادة الفكر إلى تشخيص الـداء، وبـذل الـدواء، وإذا عـرف التحـدي أمكنت المواجهة، وإذا كانـت معرفة أسباب الغزو الفكـري، تقف بالمسلمين على محطات الانطلاق، فإن معرفة مظاهر الغزو الفكري، تساعد على التبصر بالمواقع والمواقف.

مظاهر الغزو الفكري :

مظاهـر الغزو الفكري كثيرة ومتعددة، وتكـاد تشمل جميع جوانب الحياة، وهـذه المظاهر، لم تكـن إلا بناءاً على دراسات دقيقـة لأحوال المجتمعات الإسلامية . .

لقـد خطط أعداء الأمـة الإسلاميـة، وتـدارسوا الأمـر فيما بينهم، ووضعـوا مخططات تنفـذ بكل دقة، وتـوالت مظاهـر الغزو الفكـري تنتشر بين المسلمين، يساعد على ذلك أمران :ـ

الأمر الأول : موالاة بعض حكام المسلمين للغرب .

الأمر الثاني : الدعاية للنظم الغربية والتغرير بها .

ولولا هذه المسـاعدة، لكان من الصعب على مظاهـر الغزو الفكري أن يستشري خطـرهـا، وقـد نجح الغـزو الفكـري في إعـداد بعض «كـوادر» تتولى القيـادة، وإدارة أمور المجتمعـات . وكانت الـدعايـة للنظم الغربية، والتغرير بها، تـدفع الناس إلى قبول ما يأتي من الغرب ـ أياً كان ـ .

ومظـاهـر الغـزو الفكـري يلمسهـا المراقب والبـاحث في كثير من القضايا مثل :

١ — حملات التشويه .

٢ — إحياء النزعات الجاهلية .

٣ — إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة .

٤ — التعليم والثقافة .

٥ — الخدمات الاجتماعية .

أولاً : حملات التشويه :

إذا ما بحثنا في حملات التشويه ـ والتي كانت مظهراً من مظاهر الغزو الفكري ـ وجدنا أن هذه الحملات، مست كل ما يتصل بالإسلام من عقائد، ونظم، وتراث، وتاريخ، وفكر، وحياة.

(١) : فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، بغير سند ولا دليل. يقول رينان الفرنسي، وهو يصور عقيدة التوحيد في الإسلام : «بأنها عقيدة تؤدي إلى حيرة المسلم. كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك». (١)

ودائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الجديدة، التي لم تترجم إلى اللغة العربية، تزعم فيما تعرضه تحت مادة : «ابن تيمية»، أن ابن تيمية كان مسرفاً في القول بالتجسيد، ومن ثم كان يفسر كل الآيات والأحاديث التي تشير إلى الله بظاهر اللفظ، وقد تشبع بهذه العقيدة، إلى درجة أن ابن بطوطة يروي عنه، أنه قال من منبر جامع دمشق : «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ثم نزل درجة من درج المنبر»(٢)

(٢) : وهناك محاولة : تشويه القرآن الكريم، وهي محاولة قديمة وحديثة، وهذه المحاولة كغيرها بعيدة عن العلم والمنطق. يقول المستشرق جب : «إن محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها، وشق

١ — انظر : الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠٨.

٢ — انظر : عبدالعزيز علي المحويتي، مجلة المنهل ع ٤٨٥، ص ١٠٨، ١٠٩، جمادى الآخرة ١٤١١هـ جده، السعودية.

طريقه بين الأفكـار والعقائد الشائعة في بيئته ، فـالقرآن من صنع محمد ﴿ﷺ﴾ ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها(١) .

(٣) : وهنـاك محاولـة : تشـويـه السنـة النبـويـة ، وهي محاولات ضـاريـة ، عميقـة الجذور في تـاريخ الحرب ضـد الإسـلام ، وهي محاولات تستهدف مما تستهـدفه محاولات تشويه القـرآن الكريم ، من عـزل المسلمين عن دينهم ، بتشـويـه مصـدريـه الأسـاسين : القـرآن والسنة . . وهي حـرب دخلت على المسلمين حديثاً عن طـريق الغزو الفكـري ، وقد جنـد أعـداء الإسلام لتشـويـه السنـة ، ما جنـدوا من أقلام ، وكتب ، ومجلات ، وبحوث ، ومجمل محاولات الأعداء :

* الادعاء بأن هناك بعض الأحاديث لايمكن أن تكون قد صدرت عن النبي ﴿ﷺ﴾ .

* والادعاء بأن محاولة وجـود شيء في الحديث النبوي يمكن القطع بصحة نسبته إلى النبي ﴿ﷺ﴾ تاريخيًا ، محاولة فاشلة .

* الادعاء بأن الفرق الإسلاميـة عندما اختلفت في الآراء ، أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه .

* الادعاء بأن الأحاديث النبويـة ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى(٢) .

(٤) : وهناك محاولة تشويه شخصيـة الرسول محمد ﴿ﷺ﴾ ، وهي محاولات قـديمـة وحـديثـة ومستمـرة ، تهاجم رسـول الله ﴿ﷺ﴾ ،

١ — أنظر : الدكتور علي عبدالحليم محمود ، الغـزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص ٢٩ جامعة الإمام ١٤٠١هـ.

٢ — المصدر السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

وتحاول أن تنال من شخصه.

(٥) : وهناك محاولة تشويه التاريخ الإسلامي. وهذه المحاولة من أخبث المحاولات وأكثرها دهاءًا ومكرًا فقد صور هؤلاء الحاقدون على الإسلام والمسلمين، أن الفتوحات الإسلامية فتوحات غزو واستعمار، وأن الخلافة الإسلامية خلافة تآمر، وسفك للدماء، وغير ذلك كثير مما لا يقره عقل ولا دين.

(٦) : محاولة تشويه التراث الإسلامي، ولا يخفى أن تشويه تراث الأمة، هو تشويه للأصالة التي تنطلق منها. وتراث المسلمين تعرض لانتهاك هؤلاء الحاقدين على كل ما هو إسلامي، فأصابه ما أصاب غيره من الافتراء والافتئات.

(٧) : هناك محاولة تشويه مجال الغيب في الإسلام، وهذه المحاولة أريد منها زعزعة الإيمان بالغيب عند المسلمين، ولذا جاءت المحاولة تشكك في كل ما لاتدركه الحواس، وتفسر الجزاء عند المصدقين به.. بأنه جزاء روحي، والجنة والنار بأنهما شعور نفسي.

(٨): وهناك محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية، وذلك بالادعاء بأنه لايوجد نظام للحياة معروف في الإسلام.

والتهم التي وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة ولكن أبرزها وأخطرها :-

(أولًا) : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم. (١)

المصدر السابق، ص ٧٨.

(ثانيًا) : اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية .

(ثالثًا) : اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ، تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد .

(رابعًا) اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية، بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها، في عصر من العصور .

(خامسًا) : اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير الإسلامية، في ظل الدولة الإسلامية .

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين، وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربي .

(٩) : وهناك محاولات تشويهية أخرى، تتصل بجوانب من الإسلام وتعاليمه .

ثانياً : من مظاهر الغزو الفكري : إحياء النزعات الجاهلية التي لاتتفق مع تعاليم الإسلام، كالدعوة الى القومية، والدعوة إلى الفرعونية، والآشورية، والفينيقية، وما جرى مجرى هذا، مما يتنافى مع الإسلام .

ثالثًا : الدعوة إلى التحلل والإباحية : وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة في أخلاقها وقيمها، وقد شاعت في المجتمعات الإسلامية أمور تعافها الفطر السليمة. ولكنه الانحراف الذي لايعترف بالقيم الفاضلة .

رابعًا : إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة : ولايخفى أن إبعاد العلماء عن المراكز التوجيهية أمر له خطورته. وفي بعض

المجتمعات تقلص دور العلماء، وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة، وبعض الأحاديث التي تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة، وأصبح بعض العلماء يجرون وراء المناصب جرياً، تذل له الجباه، ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر في الأتباع، وأياد في التصفيق والتأييد.

خامساً: التعليم والثقافة، ولايخفى أن الغزو الفكري، ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أي مظهر آخر.

وقد دخل الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي، من باب يخيل إلى السطحيين من الناس أنه الباب الطبيعي. اذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن. يقول القس زويمر: «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في التحكم بالمسلمين». (١)

ومن المعروف أن المسلمين أقبلوا على هذه المدارس بكثرة كاثرة، يلتهمون كل ما احتجنته من عقيدة وفكر، لايميزون صحيحها من فاسدها، ونفعها من ضرها(٢).

وبما أن الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب، بل مناهج فكر وخلق، تصطبغ حياة الأمة بصبغتها في شتى ضروب نشاطها، فإن «الغزو الفكري» استطاع من خلال الثقافة، أن يلقي بمزيج من الأخلاط الغربية الملتمسة من الفكر الغريب المنحرف، والتوجيه الفاسد، القائم على التخطيط الشرير(٣). ولهذا قام الغزو

---

١ — محب الدين الخطيب، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٤٨، ط ١٣٨٤ هـ.

٢ — إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، ص ١٣.

٣ — انظر: عمر عوده الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص ١٦٧، ١٦٨.

الفكري بالدعوة إلى الأغراض الآتية :

١ — الدعوة إلى إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية .

٢ — الدعوة إلى العامية ، وإلى تطوير اللغة .

٣ — إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية ، والشعور بمركب النقص .

٤ — دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية .

٥ — توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية .

٦ — تمجيد القيم الغربية ، وتسفيه القيم الإسلامية ، والدعوة إلى نبذها .

٧ — لفت المجتمعات إلى القشور ، وإلهائها عما يفيد وينفع .

٨ — إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية ، والبعد عن الأساليب العلمية .

٩ — إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية ، وبذر الشكوك ولي الحقائق فيها .

١٠ — الحرص على تكوين جيل مثقف ، يحمل راية الاستشراق والدعوة إليه . (١)

١١ — الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغات غير اللغة العربية ، ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن .

سادساً : الخدمات الاجتماعية : والخدمات الاجتماعية مظهر من

---

١ — انظر : الدكتور توفيق يوسف الواعي ، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، ص ٧٢٢ .

أن الخدمات الاجتماعية طريق يساعد على إمرار ما يراد إمراره، من خلال الخدمات الاجتماعية، ولذلك أصبحت الملاجىء، والمستشفيات، والمستوصفات، والجمعيات الخيرية، ووكالات الإغاثة، ودور الايتام، والمسنين، وغيرها. . . . مراكز غزو !!

ومما يلاحظ أن «الغزو الفكري» لم يقتصر على المظاهر التي ذكرنا بعضًا منها، وإنما كانت هناك خطوات أخرى، محسوبة ومتعددة، على الجهات والطرق كافة ، ومن هذه المخططات :

١ — الإرساليات التبشيرية التي قل أن يخلوا مجتمع إسلامي منها.

٢ — الإعداد الصهيوني والتنسيق بينه وبين الفكر الغربي.

٣ — التصنيف والتأليف في المباحث الإسلامية، واستغلال قصور المسلمين فيها.

٤ — إلقاء المحاضرات في الجامعات أو الجمعيات الإسلامية.

٥ — إنشاء دوائر المعارف الإسلامية والمعاجم المختلفة . . وغيرها. . . .

٦ — استغلال البعثات العلمية والثقافية.

٧ — الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها.

٨ — استغلال الأقليات والطوائف وإثارة النعرات.

٩ — التعاون بين التبشير والسياسة.

١٠ — استغلال الحركات الوطنية، والتطلعات السياسية.

١١ — استغلال فقر الشعوب، وحاجتها، وعريها، وربط

الإحسان بالتبشير .

١٢ — استغلال العـواطف والجوع الجنسي ، واستخدامه في خـدمة الأهداف .

١٣ — الـرحلات ، وجمعيـات الصـداقة ، والـدعـوة إلى العالميـة ، والمجتمعات الكشفية .

١٤ — المسـاعدات الاقتصـادية ، وربطهـا بتسهيلات ، وتنـازلات معينة .

١٥ — الدعوة الى الحوار الحر ، مع نبـذ العقائد والافكار ، والتجرد للوصول الى الحقيقة(١) في زعم هؤلاء .

تيارات الغزو الفكري :

ومـا لايخفى على بـاحث أو دارس ، أن الغـزو الفكـري لكي يحقق أهدافه من إبعاد الأمة الإسلاميـة عن أصالتها ، وآدابها ، اتخذ له منافذ متعددة ، وتيارات مختلفـة ، قد تبدو متباينـة ، ولكنها تلتقي جميعها في محاربة الإسلام والمسلمين ، ومن هذه التيارات والحركات :

(الاستشراق) ، (التبشير) ، (الصهيـونيـة) ، (الماسونيـة) ، (أنـديـة الـروتـاري) ، (العلمانيـة) ، (القـوميـات) ، (التغـريب) ، (الوجودية(٢)) ، (الفـوضوية) ، (القاديانية) ، (البـابية والبهائية) . . وغير ذلك .

---

١ — المصدر السابق ، ص ٧٢٣ .

٢ — انظر : وراجع كتـابنا ، التيارات الفكريـة والحركات المعاصرة ، ط . دار الطباعـة المحمدية بالقاهرة ١٤١٢هـ .

إن هذه التيارات والحركات، صنعها «الغزو الفكري»، ليمر من خلالها إلى الشعوب الإسلامية. وقد استطاعت هذه التيارات أن تثبت أقدامها، وتوطد علائقها، وتقيم معاهدها، ومدارسها.

وهناك مجتمعات إسلامية - جميع أبنائها مسلمين - بدت فيها ظاهرة لايتنبه لها إلا بعض الباحثين وما أخطر هذه الظاهرة. ظاهرة انتشار صورة الصليب في أشكال، قد لاتلفت النظر لأول وهلة.

كأن تكون داخل مربع يضيء ليلا، أعلى قمة محل تجاري..

وقد تكون الشارات والشعارات النصرانية داخل إطار دائري، تتزين به حجر الاستقبال..

قلت لصديقي الذي تتزين حجرة جلوسه بثلاث من هذه الدوائر: ما هذا؟ قال: لا أدري - والله - إنها أدوات زينة.

وقد تكون داخل إطار كتابي «شعاراً» لإحدى الشركات الكبرى.

وفي بعض المجتمعات الإسلامية، لايستطيع أحد أن يشير إلى إي ظاهرة من ظواهر الغزو الفكري في المجتمع. بأي إشارة كانت.

وهكذا تعيش بعض المجتمعات الإسلامية في ظواهر الغزو الفكري، ولا أحد يرى، ولا أحد يتكلم، ولا أحد يسمع.

لقد نجحت الحملات التي قامت بها مؤسسات الغزو الفكري الغربي في تحقيق أغراضها نجاحًا بعيدًا، حين ضمت إليها فئات مثقفة من المسلمين، وجعلتها في صفها تحارب الإسلام وثقافته. وأكثر من هذا، إن هؤلاء المثقفين صاروا يستنكرون الثقافة الإسلامية، إذا تناقضت مع الثقافة الغربية. وصاروا يستمرئون الثقافة الغربية

تناقضت مع الثقافة الغربية . وصاروا يستمرئون الثقافة الغربية ويتعشقونها . ويتجهون في الحياة طبق مفاهيمها . (١)

لقد أقبل الكثير من المسلمين على ثقافة الغرب يدرسونها ويطبقونها ويتسابقون في الأخذ بها . واستجاب المسلمون إلى الدعوات العنصرية حتى صارت على لسان الكثيرين . وحتى صارت الاقليمية الضيقة هي المرتكز لأي عمل ، في أي إتجاه ، سياسيًّا كان أم اقتصاديًّا أم فكريًّا . إن هناك حربًا تشن على العقائد الموروثة ، وعلى المسلمات التي تتصل بالوحي والبعث . وهناك فلسفات مطروحة ، ترمي إلى إلغاء القيم الثوابث ، وإقامة التطور المطلق ، وتجاوز الروح ، وإقامة المادة وحدها ، وإلغاء الضوابط الأخلاقية والمسؤولية الفردية والدعوة إلى رفع الوصاية عن الشباب . . بل هناك دعوة صريحة أعلنت خطتها بإخراج العرب والمسلمين من إطارات الدين ، ودعوتهم إلى علمنة الذات العربية . وهناك دعوات إلى إعادة طرح الأساطير ، والإباحيات في أفق الفكر الإسلامي عن طريق القصة ، والمسرح ، والصحافة . وهناك دعوات تزين الباطل وتزخرفه ، ودعوات تحول الشر الى صور براقة زاهية . . (٢) .

---

١ — انظر : عزالدين الخطيب التميمي وآخرين ، نظرات في الثقافة الإسلامية ، ص ٤٦ .

٢ — أنور الجندي ، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ط . المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣هـ .

أهداف الغزو الفكري :

سوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد، ومن ثم حفلت أسواقنا، بما هو أشد فتكاً من السموم، وأعظم انتشاراً من الهواء. يتخلل كل خلية وينخر في كل بناء. أفكار ترتدي أثواباً، أو تحمل شعارات، أو ترفع مشاعل. ليس الثوب فيها، أو الشعار، أو المشعل، إلا قناعاً يستر الزيف الخطر. (١)

إن هذا الغزو الفكري الذي يجتاح الشعوب الإسلامية يهدف فيما يهدف إلى :

(١) : أن تظل الشعوب الإسلامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها. . تلك القوى التي تتمثل في عدد محدود من الدول الكبيرة، التي تحمي بعضها بعضاً، ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح، التي تهم أي طرف من أطرافها.

(٢) : أن تظل بلدان العالم الإسلامي خصوصاً، والعالم النامي عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة، ، تبعية غير منظورة، وفي هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاءها، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال، بينما هي ترسف في قيود الذل والتبعية. وليس أضيع لمستقبل أمة من الأمم ان تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلا وهي دائرة في فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ما تعانيه من تبعية.

---

١ — انظر : الدكتور علي عبدالحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص٥، ٦.

(٣): أن تتبنى الأمة الإسلامية أفكار أمة أخرى من الأمم الكبيرة دون نظر فاحص، وتأمل دقيق، مما يؤدي إلى ضياع حاضر الأمة الإسلامية في أي قطر من أقطارها، وتبديد لمستقبلها فضلًا عما في ذلك من صرف عن منهجها وكتابها، وسنة رسولها.. وما يترتب على هذا الصرف من ضياع أي ضياع. إذ لا يوجد مذهب سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي يغني الأمة الإسلامية عن منهجها الإلهي. ونظامها الشامل المتكامل، في كل زمان ومكان.

(٤): أن تتخذ الأمة الإسلامية مناهج التربية والتعليم، لدولة من هذه الدول الكبيرة، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة، وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئًا واحدًا، هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أوّلا. ثم يلتبس الأمر عليهم بعد ذلك، فيحسبون أنهم بذلك على الصواب. ثم يجادلون عما حسبوه صوابًا ويدعون إليه، وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر، فيعيشون الحياة وليس لهم منها إلا حظ الأتباع والأذناب.

(٥): أن يحول العدو بين الأمة الإسلامية وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدول الكبيرة الغازية، وسير أعلامها وقادتها.

(٦): أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب، فضلاً عن أن تحل محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية أو الإقليمية، وما دام الإنسان لايفكر إلا باللغة فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها.

(٧): أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمة الغازية، وعاداتها

وتقاليدها. (١)

(٨): تصوير تراث الأمة الإسلامية بصورة التخلف، وعدم قدرته على إمداد الحضارة بشيء مفيد. وأنه لم يكن له فضل على الحضارات التي جاءت بعده.

(٩): إحياء الجوانب الضعيفة في التراث الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، والتركيز على دعوات الحركات الباطنية، وإخراجها بصورة جميلة مضيئة، ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً، وفلسفة عميقة. (٢)

(١٠): إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر.

(١١): تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها.

(١٢): إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام. وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم. (٣)

(١٣): اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين، وصرفهم

---

١ — انظر: الدكتور علي عبدالحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٨، ١٠ بتصرف.

٢ — إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، ص ٣٠.

٣ — أنور الجندي، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، ص ١٨.

عن التمسك بالإسلام نظامًا وسلوكًا .

(١٤) : تفـريغ العقل والقلب من القيم الأسـاسيـة ، المستمـدة من الإيمان بالله . ودفع هذه القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق الصحافة والمسرح والفيلم والأزياء والملابس .

الفصـــل الثـــاني
بدايـــات وبنـــــاء

بعد أن اتضحت لنـا أبعاد «الغـزو الفكري» وتياراتـه، وحركـاته، التي تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السـؤال الكبير : ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من الغـزو الفكري؟ إن جزءاً كبيراً من الغزو الفكـري، حركة فكرية هائلة، ومـا تنتجه هذه الحركة، يخصنا نحن المسلمين، ويخص عقيدتنا، ولغتنا، وتراثنا، وتاريخنا وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً آخر من الغزو الفكري، حركـة عملية هائلة، تأخذ المواقع، وتسيطر على القلوب.

والغزو الفكري بحـركته الفكرية والعملية، من أخطر مـا نواجه في حياتنـا، لأن ما يقـوم به من أهـداف تقوض الدعـائم، يتعلق بأعمق أعماقنا، عقـديًّا وفكريًّـا، وحضاريًّا، وليس هنـاك أمام المسلمين من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الـذات وإلا فلسنا جديرين بالحياة.

ولا يخفى على أحـد أن السعـي إلى إثبـات الـذات، والعمل على مـواجهـة هـذه التحديـات والتيـارات الغـازيـة دليل صحـة، ودليل صحوة. . . . . ـ إذن ـ لابد من منهج.

والمنهج الصحيح هو أن نواجه الفكر بالفكر، والعمل بالعمل.

ولكن قبل أن نـواجـه الغـزو الفكري، لابـد من بنـاء شخصيتنـا، وتحصين أنفسنا، لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو، ليست عنـدنا قابلية له. . وإذا تحصنا، لم يعد للغزو تأثير فينا.

ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكري، الذي تسلط على المجتمعات الإسلامية هو هدم شخصية المسلمين، هدماً عقديًّا، وثقافيًّا، وفكريًّا.

ولا يخفى أن انهدام الشخصية، يساعد على قبول الزيوف والأباطيل. كما يدفع إلى التبعية والذوبان.

ولهذا كان لابد لنا إذا رغبنا أن لاتؤثر فينا مخططات المتربصين، أن نبني شخصيتنا. بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام. وموسوعة بميسم الإيمان، والشخصية المصبوغة بالإسلام، والموسومة بميسم الإيمان، شخصية إيجابية، تعيش في حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءة، تعطي، وتأخذ، وتعطي أكثر مما تأخذ.

ولا شك ان إدراكنا لضرورة الإسلام لنا، ولغيرنا، يفتح أعيننا على مكانتنا، كما ينبهنا إلى موقعنا ومركزنا.

وجدير بنا، ونحن نخطو على مجد نسعى إليه، أن نتعرف على حقيقة الإيمان. فإذا وقفنا على هذه الحقيقة، وتعلقنا بها كان لنا دور.

ومن شأننا ونحن نتابع الخطى، أن نعرف ما الذي نأخذه من الأمم غيرنا، وما الذي لايصلح لنا.

ويجب أن ندرك أن إعداد القوة، ضرورة من ضرورات الحياة، حتى يتم النمو، ويكمل البناء.

ضرورة الإسلام

إن الإنسان آية الله في خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب،

وفطره على هـذه الصبغة الفـذة، مقترنة بعـديد من الغـرائز والميول، وحينما تشـده الأولى إلى زكـاة النفس، واستـواء الفطـرة، وقصـد السبيل، فإن الثـانيـة تشـده إلى النقيض تماماً بتمام، وبين هـذا وذاك يتطلع الإنسان، ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقـه، وقصد سلوكه، ويجعله على طـول الخط سـوي المنهج، قـويم السبيـل، زكي البـاعث، نبيل المقصـد، متعلقاً بمعـالي الأمور، نـائيـاً عن سفافهـا، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فـلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله وأحضان الطـاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لايملك أن يستقر في هـذا الكون الهائل، فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن لـه الاستقرار فيه، ومعرفـة مكانه في هذا الكون، الذي يستقر فيـه، (١) فلابد له اذن من عقيدة، تفسر لـه ما حـولـه، وتفسر لـه مكانـه فيما حـوله، فهـي ضرورة فطريـة، شعـورية، تقـوم بـالتأصيل لجوهر الفطـرة، ومتـابعة بعثهـا، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيـدة حاجة فطرية، مركوزة في فطرته، ومغروسـه في شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبـه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار(٢).

هـذه الحاجة الفطـريـة في الإنسان إلى العقيـدة، هي التي يتحقق بها إدراك الإنسـان لحقيقـة مقـامـه في هـذه الحيـاة، ورسـالتـه وعملـه ودوره(٣).

---

١ — د. أحمد السايح، العقيدة في الإسلام، مجلة جوهر الإسلام، العـدد الثاني والثالث، ص: ١٦ من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس.

٢ — المصدر السابق.

٣ — أحمد محمـد جمال، الـدين فطـرة وميثـاق، كتـاب نـدوة المحـاضرات لموسـم حج سنـة: ١٣٨٩هـ، ص: ٢٠٠، ط: رابطة العالم الإسلامي، بمكة المكرمة.

وقد أودع الله ــ سبحانه وتعالى ـ في الإنسان، ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود(١) وندبه الله ـ سبحانه وتعالى ــ للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التي يراها الحس والعقل والوجدان، في الآفاق وفي النفس، وفي كل شيء(٢) ففي الأرض آيات للمؤمنين، وفي السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السلمية، هي التي تتوجه إلى الكون، بروح منفتحة، تكشف ما فيه من قصد، وتصميم وإبداع، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه ـ عز وجل ـ (٣).

فالإنسان لاغنى له عن الدين، لانه يحسه في نفسه، شعورًا ووجدانًا ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»(٤).

وقول الله تعالى: ﴿وإذ أَخَذَ رَبُّكَ من بني آدَمَ من ظُهُورهم ذُرِّيَّتَهُم وأَشْهَدَهم عَلَىَ أَنْفُسِهم أَلَسْتُ بربِّكُم قالُوا بلى شَهِدنا أن تقُولُوا يَومَ القيامة إنَّا كُنَّا عن هَذَا غافلين أو تقُولُوا إنما أشركَ آباؤُنَا من قَبلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً من بَعدهم أفتُهلكُنا بما فَعَلَ المُبطلُونَ﴾(الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣)

---

١ — قال تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) سورة النحل، آية ٧٨.

٢ — قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) سورة فصلت، آية ٥٣.

٣ — د. عبدالكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٦، ط. الثالثة، مؤسسة دار الأنوار بالرياض، سنة ١٣٩٤هـ.

٤ — رواه البخاري في مواضع من صحيحه.

ففي هذه الآيـة : بيّـن الله ــ تعالى ــ أنه أخرج مـن صلب آدم وبنيه ذريتهم نسـلاً بعـد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهـم في الدنيـا وأشهـدهم على أنفسهم قـائلاً لهم : ألست بـربكم، فأجـابـوا : «بلى شهدنا» بذلـك، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أشهـدهم على ربوبيته، حتى لايقـولوا يـوم القيـامـة : إنا كنـا عن هـذا التـوحيد غـافلين، أو غير عالمين. (١)

فـالإيمان بالله فطـرة فطـر النـاس عليها، وإنما يضلـون عنهـا بعض الوقت، أو كل الـوقت، ثم يعودون إليها، ولو عنـد فراق الحياة، أو عنـد نـزول الكـوارث والأحـداث، فقـد كـان فـرعـون يـدعي الألـوهيـة، ويقـول لقـومـه : ﴿. . . . أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلَى﴾(النازعـات : ٢٤). وسام بني إسرائيل سوء العـذاب، وكفر بموسى، وإلـه موسى، ولكنه عنـدما أدركه الغرق قال : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ الَـهَ الاَّ الَّـذِي آمَنَتْ بِـهِ بَنُـو إسرائيـلَ وَأَنَـا مِنَ المُسلمِينَ﴾(يونس : ٩٠).

والمشركون بـالله، والكافـرون به، في كل الأجيـال، كانـوا يعبدون الأصنـام، ويستقسمـون بـالأزلام. فإذا مسهم الضر في البر، أو في البحـر، لجأوا إلى الله يدعـونه ويسألـونـه النجاة ﴿وَاِذَا مسَّ الانسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِـجَنبِه أَو قَاعداً أو قَائِماً فَلَمَّا كشَفنَا عَنـه ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّم يَدعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾(يونس : ١٢).

ومن هذا يتبين : أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطري

١ — ابن كثير تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص ٥٠٠، ٥٦٠.

لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الإنسان، وموجود في أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. «فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته. وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى». (١) .

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لايسعه إلا ان يطيع ربه في ولاء لايشوبه استنكاف، ولا يطاله تأب، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر. وهتاف العابد، تجاه قدسية المعبود، بما سجله الحق في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ استَوَى إلى السَّماء وَهيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَـهَا ولـلأَرض ائتيَا طَوعاً أو كَرهاً قَالتَا أتَينا طَائعينَ﴾ (فصلت : ١١)

والإنسان وإن كان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال القلب بمطالب جسده، ومطالبه المختلفه، التي تستلزمها حياته في الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطري للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللا شعور في أعماقه، ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من

---

١ — سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٣، ص ١٣٩١هـ.

أعماق اللا شعور، فيظهر جلياً واضحاً في الإدراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون(١) وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين، أو الاعتقاد بدين من الأديان، أمر غريزي، ويشترك بين الناس عامة في كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان، من عقيدة دينية على نحو ما ـ «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد في الماضي السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون. ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين»(٢) إذ لابد في حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، في أمن وسلام، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفسًا أمارة بالسوء، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادي إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه، أن وضع له النظم التي توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ(٣).

---

١ ـ د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص: ٤٧، بتصرف يسير، ط: دار الشروق بالقاهرة، سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢ ـ د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ٧، ط. مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

٣ ـ د. شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص: ١٢٦، ط: دار الرشد بالرياض، سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

إذن «لكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿. . . قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. . .﴾(البقرة : ٣٠) كان لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يعينها على سد منافذ الشر والطغيان»(١) .

ومن هذا يتبين : أن الدين للإنسان من الشؤون الضرورية التي لاحياة له إلا بها(٢) والله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظمًا وأحكامًا، تسعدهم في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذي يحمل الناس على كامل الطاعة، ولهذا جعل الله ــ سبحانه وتعالى ـ في كل أمة رسولًا منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء : ١٦٥)، وقد شرع الله ـ تعالى ـ لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلائم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم(٣) .

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزيًّا وفطريًّا في الإنسان، في كل

---

١ ــ محمد شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ٩، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.

٢ ــ المصدر السابق، ص ١٤ .

٣ ــ د. شوكت عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص ١٢٧ .

زمان ــ كما عرضنا ـ فإن الدين الإسلامي هو : الـدين الحق، الذي رضيه الله ـ تعالى ـ للناس جميعا . والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الإسلام: ﴿إنَّ الدّينَ عندَ الله الإسْلَـٰمُ. . . ﴾(آل عمران : ١٩) تعني : مجموعة المبادىء الإسلامية وتعـاليم الإسلام. . فالإسلام مر بمراحل كثيرة عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة في رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي جاءت إلى الانسانية كلها ـ إذن ــ رسالـة الإسلام هي الإسـلام الشامل لـلإنسانيـة ، في وحدة إيمانها بالله، قـال تعالى : ﴿. . اليَـومَ أكْمَلْتُ لكُم دينَـكُم وأَتـمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لكُمُ الإسلَـٰمَ ديناً . . ﴾(المائدة : ٣) ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتـداد زماني في المعتقد الديني، ويعـرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غـايتها، ويشتمل على شمول مـوضوعي يغطي مجالات الحيـاة جميعـاً، ويشتمل على شمـول يضم الأديـان كلهـا، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها»(١).

فالديانات وإن تعددت في الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت في المصدر الذي صـدرت عنه، وهو الله ـ تعالى ـ واتحدت ــ أيضًا ـ في الأصل الذي دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الديانـات جميعاً هو : تصحيح العقيدة أولا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعيـة الموجودة في تلك البيئات، قال تعـالى : ﴿ولَقَـدْ بَعَثْنَـا في كُلِّ أُمَّـةٍ رَّسُـولًا أَنِ اعبُـدُوا اللهَ واجتَنِبُـوا

١ ــ د. أحمد السـايح، الفضيلـة والفضـائل في الإسـلام، ص: ٣٠، ط: مجمع البحـوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

الطَّاغُوتَ﴾(النحل : ٣٦)، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا من قَبلكَ من رَّسُول إلاَّ نُوحي الَيه أَنَّهُ لاَ إلَـٰهَ إلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُون﴾(الأنبياء : ٢٥) وقال تعالى : ﴿شَـرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّين مَا وَصَّىٰ بـه نُوحاً وَالَّذي أَوحَيْنَآ إلَيكَ ومَا وَصَّيْنَـا به إبْرَاهيمَ وَمُـوسَى وَعيسَى أَنْ أَقيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَـرَّقُوا فيه . .﴾(الشورى : ١٣).

ولقـد جاء الإسـلام في جانبـه الإيماني، يـؤكد هـذه الأسس، التي أكـدهـا كل نبي، ولكنـه في الجانب الـذي يستتبع الشريعـة، جـانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات.

وهـذا الطــابع الشمـولي الملتقي في أسس العقيــدة، والمتكـامل في التشريع، هو الذي جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهـر، ولعل هذا هو السر الذي جعل من الإسـلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به رسول الإنسانية محمد ﴿ﷺ﴾(١).

وكلمـة الإسلام، وفي الإطـار اللفظي تعني : التسليم والخضـوع، وفي مفهوم الدين يراد منها : التسليم، والخضوع لله وحده، لاشريك لـه، وبهذا المعنى، أطلقت على كل مـن آمن بـالله، وسلم لأمـر الله، فأتبـاع كل نبي، وكل مـن يـدين لله من أصحـاب الأديـان السماويـة الحقة، هم مسلمون بهذا المعنى(٢).

ووحدة الإيمان حقيقـة تفرضها وحـدة المصدر بصورة قـاطعة، لا

١ — د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام، ص: ٢٨ ـ ٢٩.

٢ — المصدر السابق، ص: ٢٩ بتصرف.

تقبل الجدل أو التشكيك، ولايغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده. (١)

فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضروري، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسي، والروحي. فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس دينًا فقط، ولكنه دين ونظام حياة، لاتنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً.

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادي والإلحادي.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدني بطبعه، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته، يميل إلى التعارف، والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - التعارف بين الناس، من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات: ١٣) هذا التعارف ليس مقصودًا لذاته، وإنما جعل أولًا غذاءًا لطبيعة الإنسان، وثانيا: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل

١ — المصدر السابق، ص: ٢٩.

لأفرادها في جانبها المادي والفكري، يبين ذلك المفكر محمد عبدالله دراز، فيقول: «إنه لا قيام للحياة في الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لاغنى له عن سلطان نازع، ووازع، يكفل مهابته في النفوس، ويمنع انتهاك حرماته(١).

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر ـ دون أن نجانب الصواب ـ أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام شرع الله، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينة فيه. والسر في ذلك، أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية، بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لايقع عليه سمعه ولا بصره، ولايوضع في يده، ولا في عنقه، ولا يجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وانما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة. وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لايؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها(٢).

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن، أو العقوبة المالية، لايلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

---

١ — د. محمد عبدالله دراز، الدين، ص ٩٨.

٢ — المصدر السابق. ص ٩٨.

والقانون إما إلهي، أو وضعي : لأن لكـل حضارة شطرين : شطراً روحيًـا، وشطراً مـاديًا، فـالشطر المادي يعتمـد على الحس والعقل، وليس الأمر كذلك، فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظري.

والشطـر النظـري : العقيـدة والأخـلاق، والتشريع، ونظـام المجتمع(١) ولذلك جاءت العقيدة الإسلاميـة كاملة هادية في الجانب النظـري، فشملت التشريع، والأخـلاق، ونظـام المجتمع، ومن خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع : أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل، كـان لابد في استخدام العلم، من رقيب أخلاقي يـوجهه لخير الإنسـانيـة، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفسـاد، ذلكم الرقيب هو : العقيدة والإيمان.

ولا يخفـى على أهـل العلـم : أن من الخطـأ المبين، أن يظـن بعـض الناس أن في نشر العلم والثقافـات وحدها ضمانًا للسـلام، والرخاء، وعـوضًا عن التربيـة والتهذيب الـديني والخلقي»(٢) ذلك «أن العلم سـلاح ذو حـدين، يصلـح للهـدم والتـدمير، كما يصلح للبنـاء والتعمير»(٣) فكما يستعمل للخير، يستعمل كـذلـك للشر، فـلابـد للعلم من تربية عالية، وتوجيـه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصـورة في الجانب الحسي المحض. فهو يقف عند حدود لايتجاوزها، بينما وظيفة الدين في الحياة ذات مجال رحب. فـالإسـلام بما حـواه من هـدايـة إلهيـة، وتشريعـات سماويـة، يكفل

١ — د. عبدالحليم محمود، الإسلام وتنظيم المجتمع، ص ٥، ط: دار الكتاب العربي بمصر.
٢ — د. محمد عبدالله دراز، الدين، ص: ٩٩.
٣ — المصدر السابق، ص ٩٩.

للمجتمع الإنساني، كل عوامل السعادة، والأمن والاستقرار، ولايكون ذلك عن تشريع وضعي، يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضج عقله، لايمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

لقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالدين الإسلامي، وهو خاتم الرسالات الإلهية، ما هو حق وخير، في مجتمع شؤون الحياة، فهو لم يترك الإنسان سدى، بل بين له الرشد من الغي، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوي، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردي والاجتماعي، والعلاقات التي تربطه بغيره من الناس جميعاً، فالدين الإسلامي فيه صلاح الناس جميعاً حتى الذين لم يرزقوا حظًا وافرًا من التفكير العقلي السليم، ولذلك كان الوحي الإلهي رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية(١).

والله الذي خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه، والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم، ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذي يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم، من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل، ويحول بينهم، وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس، غير نظام

١ — د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص ٨.

خالق النفوس(١).

فالإسلام نظام رباني، يقوم على مبادىء سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم في دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم في أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التي جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله. وإقرار الخير والصلاح في الأرض، على أساس قوي متين، من ربط العبد بخالقه(٢).

فهو إذن مطلب إنساني رفيع، يغذي جانب الروح ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية، تجعل منه غذاءاً ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها، توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل(٣). وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، في مختلف ملكاتها ومظاهرها. ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله ـ تعالى ـ ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى التدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو

١ ـ د. محمد حسين الذهبي (الدين والتدين) دراسة بمجلة البحوث الإسلامية جـ١، ص ٥٤، الصادرة سنة ١٣٩٥ هـ ـ ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض.

٢ ـ محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص ١٨.

٣ ـ د. محمد عبدالرحمن بيصار، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ص ٩٢، ط. الرابعة، الانجلو المصرية بالقاهرة.

الرقيب الذاتي داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذي يعلم السر، وما تخفي الصدور، فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملًا لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية والاجتماعية.

فالدين يزكي النفس، ويطهرها، ويحول دائماً بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائمًا بمراقبة الله له في كل شيء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية اليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان، وطبيعته ولايمكن لإنسان عاقل أن يستغني عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التي نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية.. فالدين يقيم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيمًا يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض كذلك فإن الإنسانية في حاجة إلى الدين، لتربية الإنسان، الذي كرمه الله تعالى فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين: ٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الإسراء: ٧٠).

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسان إلى العقيدة نـزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين أنه الحياة، وبأنه النور الذي يضيء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي به فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام: ١٢٢).

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد من العقيدة الصحيحة، التي تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الإنسانية، التي قام الإسلام عليها، ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة، والإحسان، كان لذلك أثر بالغ في سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأسباب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذي عاش تحت لوائه(١).

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج، نستمد يقيننا الذي لايتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين، المتعطشة إليه البشرية جمعاء(٢).

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل

---

١ — د. محمد يوسف موسى الإسلام والحياة، ص: ١١٤.

٢ — محمد شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص ٢٣.

هي أساس بقائه واستمراره، فهذا الـدين في حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك في تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير، إن الـدين ضرورة من ضرورات الإنسـانية الـراشـدة، لاتغني عنه فكرة عقليـة، ولاتنظيم وضعي»(٣) قال تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾(النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥).

لقد كان الإنسان في الماضي يعبـد ما لاينفع، ولا يضر، وكان يخاف من كل شيء، فجاء الـدين الحق، ودعا الناس إلى التحـرر من خوف غير الله، وما عداه من المخلوقات، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شيء.

إن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسـانية في هذا العصر، فسوف يجد أنها في أمس الحاجة إلى الإسلام.

فـالحضارة الغـربية وصلت إلى أعلى مستـوى من الرقي العمـراني، والتقدم العلمي الهائل، ولكن قصة البشرية ـ برغم التقدم الحضاري ـ فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقـدام البشر، وضاعت عقولهم. فقد أطلقت الحضـارة الغربيـة حريـة الإنسـان، وحررت غـرائزه من كل ضبط، وتحولت الحريـات إلى انحـراف في الغـريـزة، وإلى شـذوذ في الطبيعـة، وإلى عدوان على حـريات الآخـرين، ونتيجة لهذه الحريـة لم يعد هناك ضابط..

ومن تعاسـة الحضارة المادية، إنها عكست كـرائم النعم، والملكات

التي أنعم الله بها على الإنسان، عكسًا أسقط الإنسان في وديان الهلاك والدمار، وسقط بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ في السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبيز، والارتخاص، والابتذال والخلاعة(١).

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التي علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون في الفضاء، وفي الهواء وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها، وشعوبها كيف يسيرون على الأرض في طريق الخير، بغير عوج والتواء، أو تعثر.

إن الغرب اليوم في حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لايطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذي يفيء إلى ظله، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار(٢).

والبشرية اليوم في مفترق الطريق، فهناك اضطراب في الأفكار وحيرة في الاتجاهات، وزعزعة في النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب، إلى هاوية المادية والضلال.

وليس الحال في الشرق والبلاد العربية، بأحسن من الغرب، فقد انحرف الكثير عن الدين في غير قليل من شؤون الحياة(٣). لقد

١ — د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص ٢٦.
٢ — د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص ٢٧.
٣ —المرجع السابق، ص ٢٦.

تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضاري الغربي. وليس ذلك التأثير في الجانب العلمي، والصناعي، والعمراني، ولكن ـ للأسف ـ وفي أسوأ المساوىء، وأصبح بعضهم يقلد الغرب في كل ما هب ودب، وما من ظاهرة من الظواهر العفنة، ولا موضة من موضات العصر، إلا ولها في بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمي الهائل الذي وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوروبي يهرب من حضارته، لأنه لم يحس في ظلها بالسعادة، ولم يحس في مجتمعه بالأمن، والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور، وأقيمت نوادي العراة، وأبيح في غير استحياء الشذوذ الجنسي إلى غير ذلك.

وأخيراً لهذا وغير هذا : لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية، ومذاهبهم الاقتصادية، بل من كل حضارتهم التي افتتنت بالعلم والعقل، فأصبحت شقية عمياء لا تبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء، وانحدرت بالشباب الغربي إلى مدارك السفالة والانحطاط، ليعيشوا في حياة الجنس والخمر، ونوادي العراة.

والشيوعية في الشرق وفي الغرب قد أعلنت فشلها وسقطت، بعد أن شبع الناس جوعاً، وبكوا توجعاً، وتألموا من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة وكل شيء.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أي

عـون للإنسـان، أو الأخذ بـه إلى الطريق السليم، ممـا يؤكـد ضرورة الإسلام للمجتمعـات الإنسانية، لأن الإسـلام قد انطوى على طـاقة روحية جعلت منـه ـ عند التطبيق ـ قـوة فعالة ومؤثرة، بـل إن فاعلية الإسلام، شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات من جميع الجوانب.

والإنسانية في عصرنا هذا أشد ما تكون حاجة إلى الدين الإسلامي، فإن التقدم العلمي المادي الذي غزا الفضاء، لم يستطع أن يحقق للناس السعـادة والطمأنينـة التي ينشـدون، بل زادهم تكـالبـاً على المادة، وتنافسًا جشعًا جر إلى حروب.

فالـذي نرجـوه إذن لإصلاح هذا العـالم، الذي نعيش فيـه، بعد أن أفلست كل نظمـه السيـاسيـة والاقتصـاديـة والاجتماعيـة، وبعـد أن ظهرت فيه فلسفات تدعو لإنكار وجود الله، والتحلل من المسؤولية، وفاضل الاخلاق(١)،

إنـه لاشيء غير هذا الـدين الإسلامي، فـلا خلاص لـلإنسانيـة إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن نجد هذا الدين ـ كما أنزله الله ـ واضحاً ميسراً، خاليا من الغموض والتعقيـد، سليماً من التحريف والتبديل، إلا في الإسـلام خـاتم الـرسـالا الإلهيـة، فهـو دين الـروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة(٢).

فإلى هذا الإسـلام في عقيدته وشريعتـه، في عباداته ومعامـلاته، في نظمه وأخلاقه، ندعو البشرية كلها: ﴿يـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَد جَآءَكُم بُرْهَانٌ

---

١ ــ د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسان إليه، ص ٢٢.

٢ ــ محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ٢٤.

من رَّبِّكُمْ وأَنْزَلنَا إِلَيْكُم نُوراً مُّبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَاعتَصَموا به فَسَيُدخلُهُم فِي رحْمَةٍ مِّنهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِم إِلَيهِ صِراطًا مُّستَقِيماً﴾(النساء : ١٧٤ ـ ١٧٥).

هَذا الدين لا يزال العالم في حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر والداعي إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

حقيقـة الإيمـان

من المعلـوم أن الإيمان هو نبع الفطـرة في صدقهـا وصفائهـا . . وإذا صدق الإيمان في القلب . كان لذلـك آثاره في عقيدة المؤمن وشعوره، وفي صلته بـالله تعالى، وفي جهـاده في الحياة، فـلا يقبل إلا الحق، ولا يعبد إلا الله، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يـرتبط بالباطل في قول أو عمل، بل يكـون شهيـدًا على الناس من حـولـه . يـرشد ضـالهم . وينصح مخطئهم، ويعطيهـم من نفسـه المثل والقـدوة، بأخـلاقـه وسلوكه، مؤثرًا فيهم بما في قلبـه من النور واليقين . غير متأثر بما لدى بعضهم من باطل .

وصاحب الإيمان الصـادق لاتزيده الأيام إلا يقينًا، فـإن أصابه خير شكر ربـه، وأدى حق الله في نعمته، وإن أصـابه شر حمد الله، ورضي بقضائه، ولايضعف ثقته بالله شيء . .

قال تعـالى في سورة الحجرات : ﴿إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَـنُوا بِاللهِ وَرَسُـولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَـرْتَابُوا وَجَـاهَدُوا بِأَمْوَالِـهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحجرات : ١٥) .

وقال تعالى في سـورة الأنفال : ﴿إِنَّمَـا الـمُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُـهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَـاتُهُ زَادَتْـهُمْ إِيمَانًا وَعَـلَـى رَبِّهِمْ يَتَـوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـلاةَ وَمِـمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ

الـمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَـهُم دَرَجَاتٌ عِنْـدَ رَبِّـهِم وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال : ٢ ـ ٤).

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن النبي ﴿ﷺ﴾ قال : «المؤمنـون في الدنيا على ثلاثـة أجزاء : الذين آمنـوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه النـاس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تـركه لله عز وجل»(١).

وكما أن الخوف من الله ومراقبة جلالـه أثر من آثار الإيمان الصادق، فإن حب الله، وحب الرسول ﴿ﷺ﴾، وحب الإسلام كمنهج للحياة بحيث لا يـربـو على هـذا الحب شيء أبـداً، يـدل على صـدق الإيمان كذلك، وعمقه في ضمير المؤمن . .

ولا شك أن الإيمان الصادق العميق، يحيـا به ضمير المؤمن، وتسلم به اتجاهاته . . فبينما يتخبط الملايين، في دياجير الظلام الحالك، وسبل الضـلال، ترى المؤمن بـوحي من تفـاعل الإيمان في كيـانه : مـرهف الحس، صادق العزم، صالح العمل، لا تستذله الحياة، وما فيها، ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها .

قال تعالى في سـورة الزمر : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيث كِتَـابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَـانِيَ تَقْشَعِـرُّ مِنـهُ جُلُـودُ الَّـذِينَ يَـخْشَوْن رَبَّـهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُـودُهُم وقُلُوبُـهُم إِلَى ذِكرِ الله، ذَلِكَ هُدَى الله يَـهْدِي بِه مَن يَشَاءُ، وَمَن يُضلِلِ

١ ـــ الحديث رواه أحمد في المسند.

اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (الزمر : ٢٣).

فقوة الإيمان في نفس المؤمن، ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شيء، وتجعل المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه، لايشغله عن ذلك شاغل.. ومنها اشتد البلاء، فإن المؤمن لايزاد إلا ثباتاً ويقيناً، ذلك لأن قوة الإيمان في القلب، تمد المؤمن في كل أحواله بنور الاهتداء، وكمال الرجاء.. ذلك شأن المؤمن في كل أموره، في عبادته لله، وذكره إياه، وفي حرصه على مرضاة الله، مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة، وفي خضوعه دائماً لأمر الله وحكمه، وفي كمال ثقته بالله، قولاً وعملاً، وقلباً، وجسداً، وعقيدة، وسلوكاً، كذلك من شأنه ألا يهادن أهل الباطل، أو يلين في مقاومتهم..

ومن المعلوم أن الإيمان ليس كلمة تقال وكفى.. وليس شعاراً يطرح ثم ينفذ أو لاينفذ.. وإنما هو أولاً وقبل كل شيء : عقيدة تخالط شغاف القلوب، وتسري منع الدم في العروق، لايدركها ريب، ولايلحقها شك أبداً، وهذه العقيدة لاتكون صحيحة كاملة، ولاتكون سليمة تامة، إلا إذا أتت ثمراتها الطيّبة.. سلوكاً مستقيماً، وأخلاقاً طاهرة، وأعمالاً رشيدة، ومن ثم لم يذكر الإيمان في القرآن الكريم إلا مقروناً بالعمل الصالح، مثل قول الله تعالى في سورة يونس : ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات يهْدِيهم ربُّهُم بإيمَانِهِم تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ألنَّعِيمِ﴾ (يونس : ٩).

وهكذا يتبين للمسلمين أن الإيمان ليس قولاً بلا حقيقة، وليس ادعاء بغير دليل أو برهان، ولقد فهم المسلمون القرآن الكريم، وتشربوه في قلوبهم، وتمثلوه في نفوسهم، وجسدوه في أعمالهم، فكانوا بذلك مثار العجب في يقينهم الثابت، ونشاطهم الدائب، وسلوكهم الفاضل، وأخلاقهم العظيمة، وعمارتهم للأرض، وعبادتهم لله، تجاوبًا بذلك كله مع حقيقة الإيمان، ، فدانت لهم الدنيا، وامتلكوا زمام الجاه، والسلطان، والقوة، وتبوأوا قمم المجد، وصاروا في أسمى مراتب الحياة الحرة الكريمة.

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى، أن تكون الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس، تحمل الأمانة، وتنشر أنوار الحق، وتأخذ بيد الناس إلى أقوم طريق، وأهدى سبيل.

وكلما كان الإيمان عميقاً في الصدور: أحس المؤمن بذاته، وأحسن النظر إلى واجباته ومسؤولياته.

وإذا كان المجتمع البشري يموج بعضه في بعض، تحركه أمواج عاتية من الفتن والضلال، فإن أهل الإيمان يشعرون إزاء ذلك بأمرين:

الأمر الأول: أن يستمسكوا بالحق جاهدين في العمل به وحمايته.

الأمر الثاني: حماية أنفسهم من أن يجرفهم تيار الفتن، الذي يحيط بهم

وأمر ثالث: لضمان مسيرتهم: أن يكونوا مثالاً حيًّا صادقًا لمبادىء دينهم، ليرى فيهم الناس ما يدعو إلى هيبتهم واحترام دينهم، ولتكون مثاليتهم في حياتهم أكبر داع إلى الله ورسوله.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُون بِالـمَعْـــرُوفِ وَتَـــنْهَـوْنَ عَـنِ الـــمُنْكَرِ وتُؤمِنـُونَ بِـاللهِ﴾ (آل عمران : ١١٠).

وإذا كـان خير المقال مـا صدقـه الفعـال، فإن الإسلام يـوجب على الأمـة أن تحمل دعـوة الحق إلى النـاس، وتسـوسهم بـرفق إلى صراط مستقيم. . قـال تعـالى في سـورة آل عمران : ﴿وَلْتَـكُــنْ مِّنكُم أُمَّـةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالـمَعرُوفِ وَيَـنْـهَـوْنَ عَنِ الـمُنْكَرِ وأُولَئكَ هُمُ الـمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران : ١٠٤).

وإن قوة الإيمان بما تفيض على النفس من طمأنينة، وبما تعطي المؤمن من الانـدفاع الـواثق في طريق الحق، منفعًـلا به داعيًـا إليه، معتـزًا بما لديـه، لايحيد عنه، ولايقصر فيه، هي أعلى مـا اكتسب الإنسان لأنها صمام الأمان من غضب الله، وضمان النصر للمعتصمين بالله، وسبيل النجـاة من عـذاب الله في دار الجزاء. بهذا يحس كل مـؤمن إحسـاسًـا يجعله أقـوى من أن يهزم أمام الباطل، أو يضعف في مواجهـة فتنة، أو يستسلم لهوى، أو يستمرىء معصية.

والمسلمـون اليـوم في أمس الحاجة الى هـذا الإيمان الكـامل. الإيمان الـذي يقتضي من المؤمن أن يتخـذ سبيًـلا إلى الله عـز وجل. . فتجيء أعمال المسلمين وفق عقيدتهم. فـلا يرهبون من أحد أبـداً، ولايذلون إلا لسلطان الله، ولا يعملـون من عمل إلا وهم يـريدون بـه وجه الله سبحانه وتعالى . يفعلون ما أمر به جل جلاله، وينتهون عما نهى عنه، يذوبون رحمة لإخوانهم المؤمنين، فيواسون الفقير، ويجبرون الكسير،

ويقـومـون الضعيـف، ويشـدون العـزائم، ويستنهضـون الهمم، ويكـونـون دائمًـا عـونًا لإخـوانهم مـا استطـاعـوا إلى ذلك سبيـلا، ويتفجرون شـدة على أعداء الإسلام، فيجـاهدونهم بـالقلب واللسان والمال والنفس، يفلـون عـزيمتهم، ويكسرون شـوكتهم، ويعملـون جـاهـدين على ألا يكـون لأعـداء المسلمين سبيل على المؤمنين، لا في أنفسهم، ولا في أموالهم، ولا في أعراضهم، ولا في أوطانهم.

الحــوار الحضـــاري

مفهـوم الحـوار

بدايـة يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار . ومفهـوم الحضارة . حتى نتعرف على حـوار الحضارات، وننطلق لرؤيـة واضحة، تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان وحاجة الإنسان إليه .

والحوار : الرجوع عـن الشيء، وإلى الشيء، يقال : حار إلى الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة : رجع عنه وإليه، وفي الحديث : «من دعا رجـلاً بـالكفـر، وليس كـذلك حـار عليـه» أي رجع إليـه مـا نسب اليـه . والمحاورة، مـراجعة المنطـق، والكلام في المخـاطبة(١) . قـال تعـالى : ﴿قَالَ لَـهُ صَاحِبُـهُ وَهُـوَ يُـحَاوِرُهُ﴾(الكهف : ٣٧) أي وهـو يراجعه الكلام ويجادله(٢) .

والتحاور : التجاوب . لذلك كـان لا مندوحة في الحوار من متكلم ومخاطب، ولابد فيه من مراجعة الكلام، وتبادله وتداوله .

وغاية الحوار : توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم . لا الاقتصار على عرض الأفكـار القديمـة، وفي هذا التجـاوب توضيـح للمعاني، وإغناء للمفاهيم يفيضان إلى تقدم الفكر . (٣) .

---

١ — ابن منظور، لسان العرب، جـ١ ص ٧٥٠، ط . دار لسان العرب، بيروت .

٢ — سعيـد حـوى، الأسـاس في التفسير، جـ٦ ص ٣١٨٤، ط . دار السـلام . القـاهـرة ١٤٠٥هـ .

٣ —انظر : حسين حمادة، الحوار القرآني، مجلـة المعارج، المجلد الأول، ع ٨ ص ٣٦، بيروت، ١٤١٢هـ .

وإذا كـان الحوار تجاوبًـا بين الأضـداد، كـالمجـرد والمشخص، والمعقول والمحسوس، سمي جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقيًا: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة، وغرضه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. (١)

والجدل أصلاً: هو فن الحوار والمناقشـة، قال أفلاطون: «الجدلي هـو الذي يحسن السـؤال والجواب، وغـايتـه الارتقاء من تصـور إلى تصـور، ومن قول إلى قـول، للـوصول الى أعم التصـورات، وأعلى المبادىء.

واقتبس المحدثون عن أفلاطون. فأطلقوا الجدل على: الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعاني العقلية، ومن المعاني المشخصة إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل أفـلاطـون زعم سقـراط: أن العلم لايعلم، ولايـدون في الكتب. بل يكشف بطـريق الحوار. (٢) ويـذكـر العلماء: أن قاعـدة القواعـد في النظام الكوني، هي حـوار الكائنات، ليأخـذ بعضها من بعض، ويعطي بعضها بعضًا كما هي طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد، والعقد، والاستمرار.

فالحوار ليس قاصراً على الكلمات اللسانية المسموعة، انما قد يتجاوز إلى الإشـارة الموضحة، والبسمـة المشرقة، والحس الخافق، والـدورة المقبلة، والعمل الصالح، والموقف الصـالح، حتى الصمت، لايبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

---

١ — المصدر السابق، ع ٨، ص ٣٦.

٢ — المصدر السابق، ع ٨، ص ٣٧ بتصرف واختصار.

ومن البداهة القول: بأن الإنسان كائن عقل واجتماع، كائن علاقة وحاجة؛ ومن البداهة القول: إن هذه الأحوال من أحوج حاجاتها اللقاءات المتحاورة؛ ليكون المجتمع على بينة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود. كما الكون بقوانينه وأنظمته التي تجعله يحفظ بعضه بعضًا، ويستمر بعضه ببعض(١).. وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

أما الحضارة: فإنها مأخوذة من الحضر، والحضر خلاف البدو، : والحاضر خلاف البادي؛ وفي الحديث: «لايبع حاضر لباد» الحاضر المقيم في المدن والقرى؛ والبادي المقيم بالبادية. ويقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، والحضارة ـ بكسر الحاء ـ الإقامة في الحضر، وكان الأصمعي يقول: الحضارة بالفتح. قال القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبته
فأي رجال بادية ترانا

والحضر والحاضرة؛ خلاف البادية. وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك، لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار(٢). إذن أهل الحضر يوصفون بأنهم أهل القرار، كما يقال: قراري للحضري الذي لاينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ في مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم «أهل المدر» وهو قطع الطين المتماسك. أو أهل الحجر، لأنهم يسكنون بيوتاً متينة

١ ـ المصدر السابق، ص ٣٧.

٢ ـ ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص ٦٥٨.

ثابتة، خلافاً لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز(١).

ومفهوم كلمة «الحضارة» مفهوم متطور مع الزمن، لاسيما في تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العرب الفارق، بين حياة البادية، وحياة الحضر، منذ كانت بادية، ومنذ كان حضر. ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية، هو العلامة عبدالرحمن بن خلدون(٢). بل إن هذا العالم، هو أول من عالج شؤون الحضارة العربية بطريقة علمية.. ويرى: أن الحضارة هي النمط من الحياة المستقرة، والذي يناقض البداوة، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش، والعمل، والاجتماع، والعلم، والصناعة، وإدارة شؤون الحياة، والحكم، وترتيب وسائل الدعة، وأسباب الرفاهية(٣).

والحضارة عند ابن خلدون «طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة، وأنها غاية العمران»(٤).. ويقول: «إن الحضارة في الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها، إنها أحوال زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة، تفاوتاً غير منحصر، ويقع عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون

---

١ — الدكتور محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص ٩، ط. الدار السعودية، ١٤٠٢هـ.

٢ — عبدالرحمن بن خلدون، توفي سنة ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦م.

٣ — الدكتور احمد عبدالرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٧، ط. دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

٤ — ابن خلدون، المقدمة، ، ص ٣٨، ١٢٠، طبع المطبعة الأدبية، بيروت.

بمنـزلـة الصنائع ويحتـاج كل صنف منهـا إلى القـومة عليـه، والمهـرة فيه». (١)

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة في العصـور المتأخرة، قد امتد إلى ألوان من المعنى، هي أبعـد وأوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي البيئة العربية، وفي انتقـالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية إلى الحضر. إن لفظ الحضـارة في مفهومه العـام والحديث المعـاصر بصفة خـاصة، قـد أصبح أكثر اتسـاعاً، ممـا يدل عليـه اللفظ في مفهومـه اللغوي التقليـدي. . ولذا جاء في المعاجم الحديثـة: أن الحضارة هي الـرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والاقتصـادي في الحضر. وبعبارة أخرى أكثـر شمولاً هي: الحصيلة الشاملـة للمدنية والثقافـة والفكر، ومجمـوع الحياة في أنماطهـا المادية والمعنـوية، ولهذا كانت الحضارة، هي الخطة العريضة كما وكيفاً، التي يسير فيها تاريخ أمـة من الأمم. ومنهـا الحضـارات القـديمـة والحضـارات الحديثـة والمعـاصرة، ومنها الأطـوار الحضـاريـة الكبرى، التي تصور انتقـال الإنسان، أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة. (٢)

فالحضـارة بكل بساطة، معنـاها: بذل المجهـود، بوصفنا كـائنات إنسانية، من اجل تكميل النـوع الإنساني، وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية، وأحوال العالم الواقعي.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزمًا واضحًا صادقًا عن بلوغ التقـدم، ويكـرسـون أنفسهم تبعًـا لـذلك، لخدمـة الحيـاة وخـدمـة

---

١ — ابن خلدون، المقدمة.

٢ — انظر: الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨.

العالم. (١)

والحضارة باختصار شديد: هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ، والتي تبقى في المجتمع على مر الأيام، دليّلا على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيرًا، عن روح هذا المجتمع والشعب، الذي يمثله. ولاشك أن المظاهر المعنوية، تأخذ قوالب مادية مختلفة، تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم و المعارف. ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومي. (٢)

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة، ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة، كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفًا ذكره العلامة الفرنسي «جورج باستيد» جاء فيه: أن الحضارة هي التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، وتجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاصاً للعناء البشري»(٣). فالسلوك الإنساني الذي ينتج الحضارة، هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة، يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان كي يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل في طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام، والشراب، والدفء، والاستقرار، والأمن؛

١ — البرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة عن الألمانية الدكتور عبدالرحمن بدوي، ص ٥، ط. دار الأندلس، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

٢ — المصدر السابق، ص ١٨.

٣ — جورج باستيد، كتاب المدنية، ترجمة عادل العوا، ص ١٢، ط. دمشق.

وهناك منافسة الإنسان الآخر له، على ذلك؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات. (١)

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية، في جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضاري هو جواب الإنسان على التحدي الموجه له؛ تحدي الطبيعة المادية من جهة، وتحدي حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدي الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة؛ ويأتي هذا الجواب الإنساني في شتى مجالات الآداب، والعلوم، والفنون. كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادي من عمائر، وطرق، وجسور، وقناطر، وغيرها. ومن مجالات الحضارة العقائد والعوائد والأدب الشعبي، وأدب الخاصة، أو الأدب الرفيع، والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية كما لايخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه. (٢)

والحضارة على أي حال، تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالبًا ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. لذا كان من الطبيعي أن تختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة. (٣)

---

١ — انظر: المصدر السابق، ص ١١٧، والدكتور محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص ١٦.

٢ — انظر: الدكتور محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص ١٧.

٣ — انظر: الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ص ٢، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة ودربة، ومرانة، أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية، ليست ملكًا لأمة بعينها، ولا هي وقف على جماعة من الناس. لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية، قد تتشابه في مظاهرها، وفي عناصرها، وفي أسلوبها، ولا سيما إذا تعايشت في وجهات متقاربة، والحضارات الإنسانية، سلسلة محكمة متينة الحلقات، يؤثر سابقها في لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها، وينتفع بعضها من بعض. (١)

ولقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعًا أدى إلى تقدمها عند الكثير.

وتشكل الحضارة مجموعة الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التي أوجدتها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، في جو واسع جدًا، ومكان جغرافي طويل جدًا من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشاكل، التي يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضي، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية، تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود،

١ — انظر: الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨.

وهـذا العامل عنصر غير مـادي، وهو ضروري لكل حضـارة، لكي تولد، وتحيا، وتتطور، وجميع العنـاصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار، وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول مـا يسترعي انتبـاه المراقب، الـذي ينظـر للحضـارة من الخارج، هـو صفـاتها الجمالية، وإدراكهـا للجمال بشكل عـام، والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولا يخفى أن الحوار الحضاري، يتم من أجل الصفات الجمالية في الحضارة.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والتماثيل والكتابات، ذات أهمية خاصـة بالنسبـة لمفاهيم الجمال في كل حضـارة. ويأتي بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية، كفن الطبخ، وطريقة التغذية، وصناعة الفخـار، والأواني، والأدوات المنـزلية، والمفـروشـات، والمنشـآت والأدوات والآلات والأسلحـة، حيث يتـم الجمع بين الفـائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحـص المدقق: يجد أن تيار الفكـر الحضاري الإنسـاني، يتخذ طابعًـا واحدًا، لاينحـو كثيرا عن تاريخ الإنسـان ذاته. فـالحضارات والثقـافات المختلفـة، تتفاعل مع بعضهـا. فتنتج لـلإنسان مـا يشبع حـاجته الفكـرية والماديـة.. وبـذا فإن الحضارات الإنسـانية على مـر العصـور، تكون كـلاً متماسكاً. يترابـط بنيانـه العضوي، كحلقـات السلسلة الواحدة، التي لاتنفصم الواحدة منها عن الأخرى..

ولا يمكن أن تكـون كل حضـارة نشـأت بمعـزل عن غيرهـا من الحضارات الأخرى. أو أنها لم تتفاعل معها. ونظـرتنا الأساسية تقوم

على أن الحضارات تأخذ وتعطي. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلي والفكري للأمة. وتعطي ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر، والنشاط الإنساني المتصل، الذي بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض. (١)

ولا يخفى أن النشاط العقلي، والإنتاج الحضاري، لابد وأن يستند إلى أدلة ملموسة، والأدلة في هذه الحالة، إما مادية مثل النقوش والمعابد، والآثار والمنشآت، وكل شكل الإنتاج التكنولوجي. وإما فكرية مثل الوثائق، والمؤلفات، والكتب، والنظريات العلمية، والآراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية، فإنها ميدان اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار، ودارسيها. فدراسة هؤلاء تفسير الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية، التي تميز حضارة من الحضارات عن غيرها. على حين أن الفلاسفة ومؤرخي العلم، يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكري، والنظريات والآراء، وتطور الأفكار، التي يقومون على تحليلها ونقدها، ثم محاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقي، للوقوف على الفلسفة الكامنة في باطن الفكرة ذاتها.

---

١ — الدكتور ماهر عبدالقادر محمد، المشكاة، ص ١٦٦، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

الحوار الحضاري

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: ٣٠).

وقد فضل الله الإنسان وكرمه. كما وضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة. فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعني في النهاية، الحرية الحقيقية، وهي تلك الحرية الواعية المسؤولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية. التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾(الأحزاب: ٧٢).

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفًا ومسؤولًا، فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون، بما فيه، ليمارس فيه نشاطاته المادية، والروحية على السواء.

يقول الله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوات وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ. إنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَات لِقَوم يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية : ١٣).

والتفكير الذي تنص عليه الآية هنا امر جوهري لاينبغي أن يغيب عن الأذهان(١).

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون. فلايجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفًا إيجابيًّا، وإيجابيته تتمثل في درسه، والنظر فيه، للاستفادة منه، بما يعود على البشرية بالخير.

والاستفادة من كل المسخرات في هذا الكون، لاتكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو، سيؤدي إلى الرقي المادي، وفي الوقت نفسه، إلى الرقي الروحي(٢). والحضاري.

والحضارة الإسلامية هي عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها خلقيًّا، وعلميًّا، وأدبيًّا، وفنيًّا، واجتماعيًّا، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم. فإن المجتمع الإسلامي، ـ وهو المجتمع الذي يطبق شريعة الله في كل جوانب الحياة ـ هو وحده المجتمع

---

١ — الدكتور محمود حمدي زقزوق، دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي، ص ٩ ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢ — المصدر السابق.

المتحضر. والمجتمع المتحضر(١) هو الذي تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التي يقوم عليها، هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تنمي خصائص إنسانية الإنسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات(٢).

وهذه القيم إنما هي قيم إنسانية، ذات ميزان ثابت. وهي مقررة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها، حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت، أم زراعية، فالمهم في كل الأحوال هو الارتقاء صعدًا بالحقائق الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التي تؤدي إلى التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، في كل مكان، وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهي كثيرة ومتنوعة، لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله(٣).

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشىء الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعيًّا أو زراعيًّا أو غير ذلك، فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات. ويقيم حضارة

---

١ — الدكتور علي أحمد مدكور، الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي، مجلة الدارة، ع ٤، ص ٥٢، السنة ١٤، السعودية ١٤٠٩ هـ.

٢ — سيد قطب، معالم في الطريق، ص ١٣١، ١٣٣.

٣ — المصدر السابق، ص ١٣١.

هذه المجتمعات مستفيدا مما لديها.

واذا كان هذا هو مفهوم الحضـارة الإسلامية، فان التخلف الحقيقي ـ في مفهـوم المجتمع الإسلامي المتحضر ـ هو تحويل منجـزات العلم الهائلة إلى قوى باغيـة للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غير الخلقية، بدّلا من استخدامها في إعـلاء القيم الإنسـانية، وفي خـدمـة الإنسـان دون بغي أو ظلم او تحكم أو إبادة.

إن مهمـة العلم في مفهـوم المجتمع الإسـلامي المتحضر ليست قهـر الطبيعــة أو الانتصــار عليهــا، بل التلطف مع الطبيعــة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها. (١)

وإذا كـان هـذا هو عمل الإسـلام حينما ينشىء حضـارة، فإن هـذه الحضارة التي دعا إليها الإسلام، تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية، والنفسية، والمادية.

والنصوص الإسلامية التي تعلن هذه الحقائق كثيرة. منها:

ــ عن أبي هريـرة ـ رضي الله عنـه ـ أن النبي ﴿ﷺ﴾ ـ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة». (٢)

ــ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنـه ـ قال: «قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشيـاء: صدقة جارية،

---

١ ــ الدكتور علي أحمد مدكور، الثقافة والحضـارة في التصور الإسلامي، مجلة الدارة، عدد رقم ٤، ص ٩٩، س ١٤.

٢ ــ رواه مسلم.

أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (١)

— وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالا فلسطه على هلكته في الحق: ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، يعلمها»(٢).

— وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «الحكمة: الإصابة في غير النبوة»(٣).

— وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»(٤).

ويقول ابن رشد: «إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان. أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم. فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم»(٥).

وسيرًا في ضوء هذا المنهج الإسلامي وجدنا العصور الذهبية للمسلمين، تفتح صدورها لامتصاص المعرفة الإنسانية المادية التي خلفتها في الأمم والشعوب، وحضارات سالفة. (٦)

---

١ — رواه مسلم.

٢ — متفق عليه.

٣ — رواه البخاري.

٤ — رواه الترمذي وابن ماجه.

٥ — ابن رشد، فلسفة ابن رشد، فصل المقال، ص ١٧ ط. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م.

٦ — عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، ص ١٢٢، ط. دار القلم، دمشق ١٤٠٠ هـ.

اللقاء الحضاري الإسلامي ، مع حضـارات الأمم المختلفة ، تم بناء على : أن العـالم هو أقـرب مـا يكـون إلى «منتدى» عـالمي لحضـارات متميزة ، تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى ، ومن ثم فإن بينها ما هو «مشترك حضاري عام» . وأيضاً فإن هـذه الأمم تتمايز حضارياً(١) . الأمر الذي يستدعي الحفاظ على الهويات الحضارية المتميزة ، لا لمجرد الحفـاظ عليها ، رغم أهميتـه ، إنما لأسباب وطنيـة ، وعقديـة ، تلعب دورهـــا ، في إنهاض أمم كثيرة من كبـــوتها وتـــراجعهـــا ، لما لهذه الخصـوصيات من قـدرات على شحن شعـوب هـذه الأمم بالكبريـاء المشروع ، والطـاقـات المحركـة ، في معـركـة الإبداع ، ولما للتعـدديـة الحضارية من دور في إثراء مصادر العطاء العالمي»(٢) .

والـذين يعـايشـون حياة الشعـوب والأمم ذات الحضـارة الغنيـة ، والتاريخ القديم ، والتراث العريق ، أو يغـوصون في تراث هذه الأمم وفلسفتهـا ، ومذاهبهـا ، وتقاليـدها ، وأعـرافها ، يـدركون أن العـالم الإنسـاني بـه أمم متعـددة ، تتميـز كـل منهـا بشخصيتهـا القـوميـة ، والحضارية المتميزة .

إن العناصر الخارجية ضرورة حتميـة ، لاتستغني عنها أي حضارة ، مهما سمت وارتفعت . إنها تمتـزج ، لتكـون وإياهـا صيغـة جـوهريـة تختلف من تـراث إلى آخـر . وهـذه العنـاصر الخارجيـة ، تأتي بطـريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود . والاقتباس والنقل ، عملة متداولة

---

١ — الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، ص ٨ .

٢ — المصدر السابق ، ص ٧ .

بين الشعوب قاطبة، فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت، ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل، ليس وباء وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً، وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب، إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها(١).

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحاري العالم أجمع، بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم.

ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين، وحضارات الإغريق، والكنعانيين، والآراميين، وجزر بحر إيجه.

وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية، ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى. وفي الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات، عند أطراف الصحراء، تنقل البضائع والسلع، وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات، وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة. وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها، تبعًا لهذا الاختلاط

١ — انظر: الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، ص ١٥٢، ط. منشورات عويدات ١٩٨٢، بيروت فرنسا.

والتزاوج(١).

في هـذا الجو جـاء الإسـلام. إنـه لم ينتشر في فـراغ. فـالأمم التي صـادفهـا أو اتصل بها، في حـركـة المد الكبيرة، أو تلك التي اعتنقتـه ودانت به، أمم عـرفت حضارات شتى، وثقـافات متنوعـة، ومرت بتجارب روحية، وخبرات مادية متعددة.

وكان اختـلاط العرب بهذه الأمم اختـلاط قتال وحـروب ومعارك أولاً. ثم اختـلاط حضارة وثقافـة وأفكار بعـد ذلك. ومن هنـا كان التأثير والتأثـر. ومن هنـا كان التفـاعل والإخصـاب، وكان الأخـذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبـذلك عـرف العرب حضـارة الهنـد، وحكمـة فارس، وفلسفـة اليـونـان، واختلط المسلمـون بأقـوام تنـوعت عقـائدهم، وتشعبت آراؤهم. والتقـوا بمئـات المفكـرين والبـاحثين والمثقفين. واتصلـوا بأصناف من الأفراد والجماعـات لاتدخل تحت حصر. وشاع التزاوج والإصهار وتفـاعلت العادات والتقاليـد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعـلاقات. وجـاءت وحـدة الديـن لتعطي هذا التفـاعل صيغـة فريـدة. ونتج عن ذلك كلـه تمازج فكـري واجتماعي وروحي جديد، أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها(٢).

وكلما ذهبنا نبحث في حضـارات الأمم، وجدنا أن اللقـاء والتفاعل الحضاري، الـذي عرفه التاريـخ بين الحضارات العريقة المالكـة لما هو «مشترك» ولما هـو «خـاص» قـد تم وفق: أن هنـاك «مـا هـو مشترك

١ — المصدر السابق، ص ١٦٤.
٢ — المصدر السابق، ص ١٦٤.

إنساني عام» وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات ـ وهو مَعْلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقي ـ هو قدر لاسبيل إلى مغالبته أو تجنبه، لكنه تم دائمًا وأبدًا، وفق هذا القانون الحاكم: التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، تفتح له الأبواب والنوافذ، بل ويطلبه العقلاء، ويجدون السعي في تحصيله، وبين ما هو خصوصية حضارية. يدققون ـ في حذر ـ قبل استلهامه وتمثله. ويعرضونه على معايير حضارتهم، لفرز ما يقبل منه ويتمثل، من ذلك الذي يرفضونه، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية(١).

ولقد اختلط الأوروبيون بمن هم أرقى منهم، فاستفادوا من الحضارة الإسلامية، فساعد هذا على قيام النهضة الأوروبية الحديثة.

إن أوروبا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية، وتأخذ عنها، وتستفيد منها، فيما هو «مشترك إنساني عام».. أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية، فقد رفضها الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية، علوم المادة وظواهرها، وخصائصها.. وعلوم التمدن المدني والعلمي، مثل علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة، والنباتات، والحيوان،

---

١ ـ الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٠٥ بتصرف، ط. الأزهر ١٩٨٨م.

وفنـون وعلـوم الحرف والصنـاعـات، والتجـارة، والمواصـلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتـال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعهـا، والمعادن، والبصريـات، والمناظـر، والكيمياء، والفلك، والريـاضيات، من جبر وهنـدسة وحساب، والجغـرافيا، والرحـلات، وعلوم البحار، والملاحة فيهـا. . وغير ذلك من علوم وفنون(١).

لقد أخذ الغـرب، من الحضارة الإسلامية، مـا هو «مشترك إنساني عـام» وترك من الحضـارة الإسـلامية، مـا هو خصـوصيـة حضاريـة إسلامية.

«لقـد أجمعـت تيـارات فكـر النهضـة الغـربيـة، على رفـض أبـرز خصائص الحضارة الإسلامية. وهـي خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسطية» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصـائص الإسلامية، هو الـذي ميز الحضارة الغربية بطابعها المميز: الطابع المادي.

— فـالحضـارة الإسلاميـة قـامت بعمليـة «توفيق» مـا بين الحكمـة والشريعـة، ولكن الحضارة الغـربية تميـزت بإخـراج الدين من إطـار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

— والحضـارة الإسـلاميـة ربطت بين الـدين والـدولـة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة في خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٨.

«لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية، على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية. وهي خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسطية» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية، هو الذي ميز الحضارة الغربية بطابعها المميز: الطابع المادي.

— فالحضارة الإسلامية قامت بعملية «توفيق» ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

— والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة في خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

— الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع في ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد في «ليبرالية» واضحة.

— والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها. والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها. أما الحضارة الغربية، فكان اهتمامها قائماً على اللذة والشهوة واللحظة. وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى «بالميكيافيلية» «فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق».

— الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها، في حين كانت الحضارة الغربية، تقوم على أن

الإنسان سيد الكون، يفعل ما يشاء. (١)

إذن وبكل تأكيد: هناك ما هو «مشترك إنساني عام» تأخذه الحضارات من بعضها وتساهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد، الذي يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية، لاتقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ، ونجد ذلك واضحًا في أعمال أوروبا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد، أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

فالرشدية اللاتينية التي أخذتها أوروبا هي شروح ابن رشد على أرسطو حكيم اليونان، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم، والمتكلم والقاضي، والفقيه، والذي تمثل في مؤلفاته: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» و «تهافت التهافت» و «مناهج الأدلة»، فقد رفضته أوروبا رفضاً تاماً.

يقول الفريد جيوم: «إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف، وابن رشد كشارح لأرسطو»(٢)

وإذا كانت الحضارة الغربية قد رفضت منذ البداية الرشدية الإسلامية؛ كما تمثلت في مؤلفات ابن رشد الإبداعية، فإن الحضارة الغربية، قد فصلت أيضًا إضافات ابن رشد التي تخللت شروحه على

١ — انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٩، ٢٥٠، بتصرف.

٢ — الفريد جيوم، الفلسفة وعلم الكلام، ص ٣٩٤، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام.

أعمال أرسطو. ونهض بهذه المهمة القديس توما الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى أرسطو في ذات الوقت الذي تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة، تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التي قدمها لأعمال حكيم اليونان. (١)

ومما لايحتاج إلى بيان، أنه كلما استلهمت الحضارات «ما هو مشترك إنساني عام» كلما تقدمت الحضارات واستفادت وازدهرت، وانتشر الأمن.

التفاعـــل الحضــــاري

والتفاعل الحضاري ضرورة إنسانية، لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان، في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

أما الانغلاق الحضاري، فهو قاتل للإنسان. والتبعية الحضارية هي الأخرى قاتلة لكل إبداع، ولابد من حوار الحضارات.

وإذا تأملنا في حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها ـ من وجهة نظرنا ـ محاصرة بين غربتين : غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان، فهي بعد الأمة عن ماضٍ حضاري مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان، فهي بعد الأمة عن وضع حضاري معاصر.

١ — المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٩٤.

تجهل عنه كل شيء. مما مثل فجوات حضارية كبرى، ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك كان لابد لهذه الأمة، أن تعود إلى التفاعل الحضاري، وتستفيد من حضارات الإنسانية. ولابد من خروج الأمة الإسلامية، من الاغتراب الزماني، والاغتراب المكاني، وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارة الإسلامية، وبين مصادر عوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير (١) فإن فعلت الأمة ذلك، كان ذلك بداية في طريق حضاري.

و التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات، ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا. ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض، نأخذ منها ولا نعطي..

ويجدر أن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء. ولا التبعية الحضارية بمفيدة، أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان. كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً، أنه لاتوجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها. وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم،

---

١ — الدكتور محمود قمبر، هدفية العلم في الإسلام، مجلة حولية كلية التربية، عدد رقم ٨، ص ٦٣، سنة ١٤١١ هـ ١٩٩١م، كلية التربية، جامعة قطر.

وتفـاعل بين حضـارات أخـرى ، تفاعلت هي بـدورهـا وغيرهـا من الحضارات في الزمان والمكان .

والنمـو الحضاري إنما يعتمـد على التجـارب الحضـارية الأخـرى . وكلما ازدادت فـرص الالتقـاء والتفـاعـل بين الحضـارات ، ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم .

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلى مستقبل مشرق ، لابد وأن تخوض معركـة بناء الـذات وتجديدها ، مسـوقة بقيم وأفكـار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية .

ولا يخفى أن الأمـة الإسلاميـة تملك رصيداً ضخما من القيم الهادفـة وتـوجيهات الإسـلام ، وهذه القيم كفيلـة عند استثمارهـا ، بأن تجعل الأمـة الإسـلامية في وضع ، يسمح لها بـأن تنمي فلسفتها الحضـاريـة الإنسانية ، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضـارة إنسانية . ومما هو معـروف أنـه ليس كل عمـل يصـدر من الإنسـان يسهم في الحضـارة الإنســانيـة . وإنما ذلك العمل الــذي ينمي الحضــارة ، وينطلق من الإنسان للإنسان .

إعداد القوة ضرورة حياتية

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة، وقد ثبت بالتجربة، أنه أمر لابد من وقوعه بين الناس، مهما ارتقت أفكارهم، أو تقدمت وتطورت معارفهم وحضارتهم، والدليل الواضح على ذلك، ما يقع بين الأمم من الحروب العالمية، وهذا التسابق المحموم في أسلحة الفتك والدمار والخراب، رغم ما توصلوا إليه من العلم والحضارة المادية، والتقدم(١).

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا، أو تخف حدتها، أو تحصر ويلاتها، ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام، وبكل ما تنطوي عليه من قسوة، وبطش، وإخلال بالأمن والسلام، سر من أسرار الحياة، وجوهر من جواهرها.. لأن الحياة هي الحركة، والحركة هي التي تحوِّل المادة وتغيرها، بما تحدثه من احتكاك وصدام، وصراع مستمر..

إن كل ما في الكون، من عناصر مركبة، أو بسيطة في كفاح مستمر، بين أجزائه المختلفة.. فالماء، والهواء، والحرارة، وبقية العناصر، كلها في حرب دائمة.. ومن هذه الحرب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية، التي تؤلف مسرح الحياة..

فالرياح، والعواصف، والسحب، والبروق، والرعود، والصواعق، والسيول، والأمطار، والزلازل، والبراكين.. هي

١ — الدكتور أحمد السايح، «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص ١٧٩، ط. دار اللواء بالرياض ١٤٠١ هـ.

مظهر هـذا القتال، فما من ذرة مـن ذرات الكون إلا ويجري فيهـا هذا الصراع.

وحسبك أن تنظـر إلى قطرة من الماء من خـلال مجهر، أو تـرى قطرة من الدم لترى فيهـا جيوشًا جـرارة، في كر، وفر، وإقبـال، وإدبار، يلتهم بعضها البعض الآخر، بعد أن يصرعه. .

فإذا شئت أن ترى ذلك مكبراً بالعين المجردة، فما عليك إلا أن تلقي بنظـرة على الغـابـة، حيث تغص بـالحيـوانـات الكـاسرة، والطيـور الجارحـة، التي لاتنفك في حرب متـواصلة، لاتفتر لحظـة، أو تهدأ، ابتداء من الـدودة الصغيرة، إلى الفيل الضخم. . ولو نظـرت إلى قاع المحيط، لوجدت مثل ذلك جيوشًا لايدركها الحصر، تتباغى وتتقاتل وتتصارع حول الحياة والموت (١).

وما كـان الإنسان ليشـذ عن هذه القاعـدة، وهو أرقى صـور الحياة وأملهـا، غير أن العقل والأديـان، قـد نظمت قـواه، وحـدت من غرائزه، التي تدفعه للقتال، دائمًـا وأبدًا . . لكنها لم تقض على هذه الغريـزة. . وإلا لقضت على الحياة في أساسهـا، فبقيت غريـزة القتال كامنة في النفوس، لاتلبث أن تحتـدم، متى وجدت دواعيها، وتهيأت أسبابها. . ومـا أكثر الأسبـاب والدوافع، التي تفضي إلى المنـافسة بين أبناء البشر (٢).

والإنسـان حين يفقـد سـلامـه النفسي في داخلـه، يفقـد سـلامـه

١ — الأستاذ أحمد حسين، «الحرب على هـدي الكتاب والسنة»، ص ١١، ط. المجلس الأعلى بالقاهرة، ١٩٧٤م.

٢ — المصدر السابق، ص ١١.

الاجتماعي والعالمي في خارجه، ويعدم الراحة، والهدوء، والانضباط، ويتلفت عن يمين وشمال، فلا يرى إلا جيوش الأهواء والنزوات، وفيالق الأثرة والمطامع تدق طبولها، معلنة، على قراره الذاتي، وسلامه النفسي، حربًا ضروسًا، لا تلبث إلا ريثما يضيق بها ميدان وجدانه، ومجال مشاعره، لتمد ألسنتها، حامية الوطيس، مشتعلة الأوار، خارج هذا النطاق، لتأتي على الأخضر واليابس، من علائق الأفراد والجماعات، والأمم، ومقدراتها، وممتلكاتها، ومناطق نفوذها، وما سطرته يراع الإنسانية من معالم الحضارة، ومشاهد التقدم، ووسائل المدنية، التي ترمي إلى ترقية الحياة، وتهذيبها . .

والويل كل الويل، يوم يذر قرن الفتنة، وتشرئب الأهواء النافرة، والنزعات الشاردة، والمطامع الفاغرة، معلنة إصرارها على طمس الحق وأهله. لهذا كان حرص الإسلام البالغ، على أن يتصف أهل الإيمان بالقوة، وعلى أن يكونوا دائمًا على استعداد، لمواجهة أهل الباطل، مهما تكن التضحيات في النفس، والأهل والمال . . والتحفظ الوحيد الذي وضعه الإسلام على قوة المسلمين، هو أن تكون قوتهم في خدمة العدل والسلام، وأن تنأى عن البغي والعدوان.

قال تعالى ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج : ٤٠). ذكر القرطبي في تفسيره : أنه لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء،

لاستولى أهل الشرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات، من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال، ليتفرغ أهل الدين للعبادة . . فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبدات(١).

حقاً إن الإسلام حين يضطر إلى القتال، فإنما يمارس أشرف أنواع القتال وأنبله، ذلكم الذي لم ولن تعرف الدنيا له عدّلا ولا نظيراً، من قريب أو بعيد، من حيث أسبابه، وأهدافه، وغاياته، وملابساته، وظروفه . .

إن أسباب القتال جميعًا تلتقي عند درء العدوان، ورد الهجوم، واسترداد الحق السليب، والكرامة المهيضة، والأمل الشريد، واقتلاع جذور الظلم، وكسر حدته، وانحسار موجته . . ولولا أن يغري الله به المؤمنين، لاعتلت المفاهيم، واختلت الموازين، واضطرب أمر الحياة، ولخلا وجهها من الحق وجنده(٢). وتلتقي أيضاً بواعث القتال عند درء الفتنة، إذا ذر قرنها، واستيقظ شرها، وتطاير شررها، فإن طاقات النفس محدودة، وقدراتها تحت مطارق الفتن، وصروف الهوان قاصرة، يخشى حالئذ أن تلين، أو تهون، أو تتشتت، فتعطي خصمها الدنية في ذاتها، ويقّينها . . إذ التلويح، والتلميح، والمساومة، والإلحاح، والرغبة، والرهبة . . من أخطر الأساليب التي تمس أغوار النفس، في ظروف العسف، والقهر،

---

١ — القرطبي، أحكام القرآن، جـ ١٢، ص ٧٠، ط. القاهرة.

٢ — نظام الحرب في الإسلام الدين والحياة، وزارة الأوقاف، مكتبة الإمام، جـ ١٤، ص ١٢، ط. الأوقاف، ١٩٧٣م.

والبغي، والطغيـان. . فيلين عودهـا، ويتبخر ريها، وتأتي على مـا في قـرارهـا من يـابس وأخضر. . ومـا لم يتـدارك هـؤلاء تحت العـذاب والفتن، ومعاول الهدم. . فإنهم لايلبثون إلا ريثما تضيق على أعناقهم قبضة الفتن، فإذا هم ساقطون. . إن القتـال حينئذ حبل إنقاذ، ينقذ المحطـومين، ويمنع المتآمـرين، من التـوسع والمزيد. . ولا مـلام في هذا، فمن أشعل الفتنة صلى نارها، ومن سل سيف البغي صُرع به.

وإن القتـال في الإسـلام كما يكـون لأهل العـدوان والاضطهـاد، والفتن، يكون أيضًا، لمن يهددون الأمن، ويقلقون السلم. . ويكون لمن يدسون الدسائس، ويـزرعون الوقيعة، ويبثون الخدع، وينشرون الأراجيف، وينفثون السموم، ويرجون لأساليب الهدم والدمار، من المذبـذبين، وذوي الضمائر الفـاسدة، والـذمم الخربـة، وأهل النكث والخيانـة. ومن لديهم الاستعداد إلى الإنسلاخ من كل مبـدأ، والتلون بكل لون، وتغيير جلودهم، حسب الملابسات والظروف(١).

وما كـانت أسباب القتـال في الإسلام راجعة يـوما «مـا» إلى عدوان منه، أو بغي أو تسلط، أو قسر، أو إكراه. . وما كانت أيضا معاداة، ولا باطلاً. وإنما كان الأمر معـه على العكس. . فالمسلمون كانوا على مر العصور ضحايا القسر والتعذيب، والطغيان، والقهر. . ولذا لجأ المسلمون لمحـاربة القوة بالقـوة، لأنه لاتحارب القوة بـالحجة، ولكن بمثلهـا، فلا يفل الحديـد إلا الحديـد، فكانت حـروبـه جميعاً لاتقـاء هجـوم مبيت، من قبل طغاة متجبرين، لايـألون جهـدًا، في مباغتـة الإسلام بالهجوم عليه، والإيقاع به، وفض الناس عنه. .

---

١ — المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٣ بتصرف.

إذن حتمية المواجهة تستدعي من المسلمين ــ أمة، أو مجموعة من المجتمعات ـ ضرورة التهيؤ، والاستعداد، وليس شرطًا أن ينتظر المسلمون، حتى يروا أمارات السوء، والشر والعدوان، من عدو معروف لهم، فيبدأون في أخذ وسائل الدفاع . . إنما عليهم أن يدركوا طبيعة الحياة في هذه الزاوية الهامة، التي تحكم بوجود الصراع، تجربة، وتاريخًا، واقعًا، بين الناس، فيبذلون قصارى جهدهم، في اعداد القوة، حتى ولو لم يكن أمامهم عدو معروف، ومعلوم لهم.

وإلى هذا المعنى يوجه القرآن الكريم المؤمنين، فيقول تعالى :
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال : ٦٠).

فالله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالاستعداد للحرب التي لابد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس. والحق، والفضيلة . . ويكون ذلك بأمرين :

الأمر الأول : إعداد المستطاع من القوة، ويختلف هذا باختلاف الزمان، والمكان، والواجب على المسلمين في هذا العصر، صنع المدافع والطائرات والدبابات وإنشاء السفن الحربية، والغواصات، ونحو ذلك، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات، التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله ﴿ﷺ﴾، في غزوة «خيبر» وغيرها. روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي ﴿ﷺ﴾، وقد تلا هذه الآية (١). يقول: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثًا. وذلك أن رمي العدو على بعد، بما يقتله، أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، أو نحو ذلك.

وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها.. فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة في عصره، ﴿ﷺ﴾(٢).

والأمر الثاني: مرابطة الفرسان في ثغور البلاد وحدودها.. إذ هي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد.. والحكمة في هذا، أن للأمة الإسلامية جند دائم، مستعد للدفاع عنها، إذا فاجأها العدو على غرة.. ﴿تُرهبونَ به عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُم﴾ أي أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية، ومن الفرسان المرابطة، لترهبوا أعداء الله الكافرين به..

فالكفار — إذا علموا استعداد المسلمين، وتأهبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات، خافوهم، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم
إن الدم المغبر يحرسه الدم

---

١ — آية سورة الأنفال «واعدوا لهم ما استطعتم».

٢ — الدين والحياة، نظام الحرب في الإسلام، ص ٦، ط. وزارة الأوقاف.

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه :-

١ — يجعل أعداءهم لايعينون عدواً آخر عليهم . .

٢ — يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم . .

٣ — ربما حملهم ذلك على الدخول في الإسلام والإيمان بالله ورسوله .

والخلاصة : إن تكثير آلات الجهاد، وأدواته، كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء، يرهب كذلك الأعداء، الذي لانعلم أنهم أعداء، «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم» . . فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعاً، ويمنعهم من الإقدام على القتال . . وهذا ما يسمى في العصر الحديث، «السلام المسلح» (١) .

ولعل الباحث يعرف أن إعداد القوة في الإسلام، والذي جاء الأمر به، ليس المقصود به إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء، . . لأن فريضة الجهاد في الإسلام، لاتنتظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة لقوة العدو، لأن ذلك قد يطول . . ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر الكبرى، حتى تتكافأ قوتهم، وقوة عدوهم، ما قامت للإسلام والمؤمنين قائمة .

إنما القلة المؤمنة بالله، والمعتزة بعقيدتها، اعتزازاً يفوق كل اعتبار، استعدت بقدر ما استطاعت، ثم خاضت المعركة فكان فيها الفرقان .

والآية الكريمة التي أمرت بإعداد القوة، فيها كلمة «ترهبون» وقد جاءت بصيغة الفعل المضارع، وتشير إلى الغرض من إعداد القوة،

---

١ — الشيخ المراغي، تفسير القرآن الكريم، جـ١ ص ٢٥، ٢٦، ط. القاهرة.

وهو إلقاء الرهبة في قلوب أعداء الله، وأعداء المسلمين، المعلومين منهم للمسلمين والمجهولين. . وكم للإسلام والمسلمين من أعداء، لو يفقه المسلمون. .

والآية الكريمة «وأعدوا» على اختصارها جمعت أنواع الإعداد للجيوش التي تتلاءم مع كل عصر وزمن، كالإعداد المادي، والإداري، والفني، والمالي، والتخطيط، والدراسة، الموضوعية لمقتضيات الأحوال. .

ولقد فرض الإسلام على الأمة الإسلامية الإعداد بكل ما تشمله كلمة «إعداد» من معنى، وأن تبذل الأمة فيه أقصى الجهود الصادقة، ولم تغفل الآية الإعداد وقت السلم، ووقف القتال، حتى تكون الجيوش الإسلامية أشد فعالية، وأكثر قدرة قتالية. .

والقتال في الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن دافع شخصي، ليتمحض خالصاً لله لتحقيق كلمة الله، وإقامة العدل، ابتغاء رضوان الله (١).

قال تعالى: ﴿أَم حَسِبْتُم أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعلَمِ اللهُ الَّذينَ جَاهَدُوا منكُم وَيَعلَم الصَّابرينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

والإسلام في هذه الآية الكريمة، يربط هذه الغاية المرجوة ـ دخول الجنة ـ بالسلوك العملي في الحياة الدنيوية، بحيث تصبح المقياس والميزان، الذي يدل على صحة الارتباط بالدين نفسه. . وقال تعالى:

---

١ ـ د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨٢، ط. دار اللواء. الرياض، المملكة السعودية.

﴿قَاتلُوهُم يُعَذِّبْـهُمُ اللهُ بأَيْـديكُم ويُـخزهِم وَيَنصُـرْكُم عَلَيهِم وَيَشف صُدُورَ قَوم مُؤمنين، ويُذْهِبْ غَيـظَ قُلُوبِهِم وَيَتُوبُ اللهُ عَلَـى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَليمٌ حكيم، أَم حَسِبْتُم أَن تُتْـــركُوا ولَـــمَّـــا يَعلَم اللهُ الَّـــذينَ جَاهَدُوا منْكُم وَلَمَ يَتَّخذُوا مـن دُون الله ولاَ رَسُوله ولاَ المُؤمنينَ وَليجَةً والله خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة : ١٤، ١٥، ١٦).

فكلمـة «بأيديكم» في الآيـة تنفي تمامًا معاني التـواكل، والإهمال، والكسل، وتـؤكـد حظ الجهـد البشري في المواجهـة لأهل الظلم والباطل. كما تفيد المسلمين، أنـه لا أمل لهم إلا في أنفسهم.. وكلمة «أم حسبتم أن تتركوا» في الآية، فيها الدلالة الواضحة على أنه لايجوز أن يتصـور أهل الإيمان قيـام الحياة ونظـامهـا، على الخلو مـن معانـاة الجهاد، والصبر، والبذل، والتضحية، وأن أي تصور يجنح إلى تجربة الحياة من غير هـذه الخصائص، وهـم باطل، لابـد من محاربته، حتى يكون المؤمن مستعدًا استعدادًا واقعيًا، يتمشى مع طبيعة الحياة (١).

والله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يكون حملة الإسلام، وحماة الدعوة الإسلامية من الجامدين الكسـالى، الذين ينتظرون النصر، لمجرد أنهم مسلمون..

والأمـة الإسلاميـة في أشد الحاجـة إلى استيقـاظ كل الخلايا فيهـا، واحتشاد كل القوى، وتوفر كل استعداد، وتجميع كل الطاقات، كي يتم النمو، ويتكمل البناء، لأن تحركات الأعـداء لاتتوقف، وتكالب

---

١ — وزارة الأوقاف، نشرة رقم ٨٨ من سلسلة الدين والحياة، ص ٨ ط. وزارة الأوقاف.

الأعداء، يزداد شراسة وسعاراً، ولا جرم، فإن الحق الأعزل ضائع.(١)

ولما كانت ظاهرة الصراع تتعلق باستمرار ذاتها، كان للاستعداد لها، والاعتراف بها، المكان المقدم في الإسلام. ولذلك جاءت مقاييس التفاضل بين الأعمال، لتضع الجهاد في قلب المؤمن ونفسه، في المكان المتفوق على غيره من سائر الأعمال. قال تعالى: ﴿لايَستَوي القَاعدُونَ منَ المُؤْمنينَ غَيرُ أُولي الضَّرر والمُجَاهدُونَ في سَبيل الله بـأَمْوالهم وأنفُسهم. فَضَّلَ اللهُ المُجَاهدينَ بأَموالـهم وأنفُسهم عَلَى القَاعدينَ دَرَجَةً وكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنَى وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهدينَ عَلَى القَاعدينَ أجراً عَظيمًا، دَرَجَات مِّنهُ وَمَغْفرَةً ورَحْمَةً، وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً﴾ (النساء: ٩٥، ٩٦).

والحق أن الذي يستعد استعداداً صادقًا للبذل والتضحية والجهاد، تسهل عليه سائر العبادات.. لذلك فإن المؤمن في عملية الجهاد أو الاستعداد لها، يتجرد عن كل شيء، لله سبحانه وتعالى، وكأنه عقد مع الله صفقة أعطى فيها، وبها، لله كل شيء، ليفوز بجنة عرضها السموات والأرض، قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اشتَرَى منَ المُؤْمنينَ أنفُسَهُم وأَموالَـهُم بأَنَّ لَـهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتلُون في سبيل الله فَيَقتُلُونَ ويُقْتَلُون وَعداً عَليه حَقًّا في التَّوراة والإنجيل والقُرآن وَمَن أوفى بعَهْده

١ — د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨٥.

منَ الله فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بَايَعْتُم به وذَلكَ هُوَ الفَوزُ العَظيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

وقال تعالى: ﴿ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا في سَبِيلِ الله أمواتًا بَل أحيَاءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقُون﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وهذا يعني أن اسلوب الجهاد ضرورة للحياة الكريمة، وأي تقصير في التهيؤ والاستعداد له، يعرض صاحبه لنقصان في الإيمان، وفساد في العقيدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﴿ﷺ﴾، قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه «بالغزو»، مات على شعبة من النفاق» (١).

وقد روى الطبراني عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب﴾ (٢).

والخلاصة: التي نفهمها من المنهاج القرآني والنبوي، أخذًا من الآيات والأحاديث، التي جاءت في ميدان الجهاد، والقتال.. أن واجب الأمة الإسلامية أن تهيىء نفسها بصفة دائمة ومستمرة إلى ضرورة الاستعداد.. حيث إن هذا الاستعداد والإعداد، جزء من العقيدة، وركن من العبادة، وقد ربط الله بتحقيقه سعادة المسلمين في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة، وإن الأمة الإسلامية تملك من الطاقات البشرية، والعقول المفكرة، والإمكانيات المادية، والمواقع

---

١ — المنذري، «الترغيب والترهيب»، جـ ٢، ص ٢٥٣، والحديث رواه مسلم وغيره.

٢ — المصدر السابق.

الاستراتيجية، ما يمكنها من أن تكون أعظم قوة في الأرض . . لا لتضرب في عتو وتجبر، ولكن لتحفظ نفسها ومجتمعاتها، وتقيم العدل بين الناس، وتنشر الأمن والاطمئنان . .

الفصل الثالث
التبشير ومواجهته

التبشير

كلمة «التبشير» من الكلمات التي أطلقت على المنظمات الدينية النصرانية، التي تستهدف نشر الديانة النصرانية في المجتمعات الإسلامية والوثنية والإلحادية.

ومما يجدر أن نعرفه أن بعضًا من الدارسين والباحثين، يستعملون في بحوثهم التي تتصل بنشر النصرانية كلمة «التنصير» بدلاً من كلمة «التبشير» لأن كلمة التبشير في المعاجم تعني: الخبر الذي يفيد السرور، وبعضهم الآخر يستعملون كلمة «التبشير» هي لسانهم وعقيدتهم، ونحن نستعمل في بحوثنا كلمة الاستعمار، والشيوعية والاشتراكية، والعلمانية، والديمقراطية، كما ذكرها أصحابها، ولا مانع أن نذكر كلمة التبشير كما جاءت.

والتبشير ـ كما تذكره الموسوعات: حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية في الأمم المختلفة، في دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.

ويعتبر المبشر «ريمون لول» أول نصراني، يتولى التبشير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها، إذ أنه قد تعلم اللغة العربية بكل مشقة، وأخذ يجول في بلاد الشام، مناقشًا علماء المسلمين، ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي، وأثناء الاكتشافات البرتغالية، دخل المبشرون

الكـاثوليك إلى أفـريقيا، وبعـد ذلك بكثير أخذت تـرد الإرساليـات التبشيرية البروتستانتية، إنجليزية، وألمانية، وفرنسية.

وقـد اهتمت الكنيسـة بتـوجيـه الجهـود إلى التبشير في المجتمعـات الإسـلاميـة، تريـد أن تقتلع الإسـلام من نفـوس المسلمين، أو تبعـد المسلمين عن الإسـلام، حتى يمكن أن يعتـز الإنسـان بـالقـوميـة أو الحزبيـة أو الاشتراكيـة، أو مـا جـرى مجرى هـذا، دون أن يفكـر في الإسلام.

ويكـاد يجمـع المبشرون فيما بينهم على أن القـوة التي تخيـف أوروبـا وأمـريكـا هي قوة الإسـلام والمسلمين، ولـذا يعمل التبشير بكل مـا يملك على تمزيق الأمـة الإسـلاميـة، ويصرح المبشر لـورانس بـراون بالهدف الحقيقي للمبشرين من عملهم في بـلاد المسلمين فيقول: «إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطـرًا، أو أمكن أن يصبحوا أيضـا نقمـة له، أمـا إذا بقوا متفـرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير».

ويعبر القس صمويل زويمـر عن النوايا السيئـة التي يحملها التبشير للإسـلام والمسلمين، فيقول: «لاينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو ييأس ويقنط، عنـدمـا يـرى أن مسـاعيـه لم تثمـر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحيـة، لكن يكفي جعل الإسـلام يخسر مسلمين بذبذبـة بعضهم.. عندما تذبـذب مسلمًـا، وتجعل الإسلام يخسره، تعتبر ناجحا يا أيها المبشر المسيحي، يكفي أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيًّا».

وصمويل زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية، ورئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط، كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي أنشأها سنة ١٩١١م، ومنذ عام ١٨٩٤م قدمت له الكنيسة الإصلاحية الأمريكية دعمها، وأبرز مظاهر عمل البعثة التي أسسها زويمر كان في حقل التطبيب، ويعد زويمر من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث، وقد وضع كتاباً تحت عنوان «العالم الإسلامي اليوم» جاء فيه :

١ — يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم .

٢ — يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين، لأنه أهم عمل مسيحي .

٣ — تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

٤ — ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوهم الميل الشديد إلى الأوروبيين .

ويقول صمويل زويمر في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م : «لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية، ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله. وبالتالي لا صلة له بالأخلاق الحميدة التي تعتمد عليها الأمم في حياتها» .

ويقول أيضاً : «إنكم أعددتم نشئاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار، لايهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوة، وإذا تبوأ أسمى المراكز، ففي سبيل الشهوة يجود بكل شيء».

إن المبشرين كانوا يخططون لاختراق مجتمعات المسلمين في دقة وخبث ودهاء، فالمبشر لويس ماسينيون قام على رعاية التبشير والتنصير في مصر، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما أنه كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، والمبشر «دون هك كري»كان أكبر شخصية في مؤتمر لوزان التبشيري وهو بروتستانتي، عمل مبشرا في الباكستان لمدة عشرين سنة.

ولقد كان للمبشرين ولا يزال الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية التي يناقشون فيها خطط التبشير، واتخاذ ما يرونه مناسبًا لهم، ومن تلك المؤتمرات المؤتمر التبشيري العالمي في أدنبرة باسكوتلنده عام ١٣٢٨هـ — ١٩١٠م، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعية تبشيرية في العالم، ومن أخطر المؤتمرات مؤتمر كولورادو في ١٥ اكتوبر ١٩٧٨م، تحت اسم «مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين» حضره مائة وخمسون مشتركًا يمثلون أنشط العناصر التنصيرية في العالم، استمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق، وانتهى بوضع استراتيجية بقيت سرية لخطورتها.

وما أكثر مؤتمرات التبشير التي تعقد في أماكن متفرقة حسب الحاجة

لعرقلـة جهود المسلمين، واقتـلاعهم من الإسـلام، ويتخذ المبشرون وسائل وأسـاليب متعددة تحيط بـالإنسان، ومن وسـائلهم التطبيب، والتعليم، والأعمال الاجتماعية، والفتن، والحروب، يقـول الدكتور نجيب الكيـلاني، : «إن روح التعصب الأعمى ضـد كل مـا هـو إسـلامي، لم تزل سـائدة حتى أيامنـا هذه، تلك الـروح التي غذاهـا المبشرون ورجال الدين من معتنقي الصليبية القديمة».

إن الباحث في أساليب التبشير التي أحاطت بالمسلمين، يجد أن هذه الأساليب أضرت بـالمجتمعات الإسلاميـة، وأصبحت عاملاً معـوقاً لكل تقدم إسلامي، وقد نجح التبشير في مواقع كثيرة، لأن إمكاناتهم هائلة، يتحملون ويعملون ويصبرون ويخططون ويتربصون، وإذا كنا تنبهنا أخيرًا إلى الأخطـار المحدقة بـالمسلمين من جانب المبشرين، فإن تنبهنـا لم يأخذ بنـا إلى الطريـق السليم، وليس من الكياسـة أن نكتفي بإنشاء مراكـز للدعوة هنا وهناك، إن الأمر يقتضي قبل مـراكز الدعوة أن نكون أقمنا الملاجىء والمستشفيات والمدارس والمعاهد ومؤسسات الإغاثة والإعاشة.

المـــواجهـــــة

المواجهـة الصحيحــة تقتضي عمّـلا يعمل، لا كـلامـاً يقـال : إن المبشرين يعملـون ونحن لانعمل، وإذا رغبنـا في مـواجهتهم لإنقـاذ إخواننا المسلمين، فـلابد وأن يكون عملنا أزيـد من عملهم، وتحركنا أسرع من تحركهم.

إن المواجهة تحتاج إلى تخطيط، وتنظيـم، وإتساع المواقع، والتعرف الدقيق، فإذا ما فعلنا ذلك، كان ذلك بداية في طريق طويل.

أمـا أن نترك المسلمين في قـارتي أفـريقيـا وآسيـا وغيرهما تفترسها النصرانية، فإن ذلك أمر بالغ الخطورة.

وإذا كـان للتبشير مـؤتمرات دوليـة، ومعـاهـد علميـة، وجمعيـات تبشيرية، فلماذا لاتكون للمسلمين مؤتمرات للدعوة والمواجهة، وهنا ربما يقول قـائل : للمسلمين مؤتمرات للدعـوة كثيراً ما سمعنا وقـرأنا عنهـا . . نعم للمسلمين مـؤتمرات، ولكن النــاس يجتمعـون فيهــا لينفضوا، فهي تسـاوي مظاهرة في الشارع، فيهـا تصفيق وكلام، ثم يدخل كل واحد بيته.

نحن نريـد مؤتمرات لا تكـون توصيـاتها وقراراتها حبراً على ورق، وإنما نريد عملاً يعمل في دقة وتخطيط.

إن المجتمعات الإســلامية تعـاني من التسلط التبشيري في الصحـافة وسائر وسائل الإعلام ووكالات الأنباء، وتعاني في البيت وفي الشارع وفي أمـور كثيرة، قد يعـرفهـا البعض ويسكت، ومـا أكثر السـاكتين

لأنهم لايملكون أن يقولوا شيئًا . إنك ترى برنامجاً في التليفزيون ينطلق من دولة إسلامية عربية فيشدك إلى مزارع وحدائق خضراء بأندونيسيا ومستشفيات ومدارس أخذت بيد الاندونيسي يقال عنها إنها : «من صنع وإدارة وأعمال الكنيسة الكاثوليكية ، هكذا تسمع وترى ، ولايخفى أن هذه الدعاية التبشيرية نصرانية ، ومن الغريب والعجيب أنك ترى في أسواق الصحافة في بعض البلاد الإسلامية ، ما هب ودب ، وهو وهي ، من المجلات والصحف ، وتمنع من الدخول والوصول بعض المجلات والصحف الإسلامية ، لماذا؟ لأنها إسلامية ، وكل ما هو إسلامي يقض مضاجع المبشرين ، ومن المؤلم حقاً أن تجد عند باعة الصحف مئات من المجلات في كل التخصصات ما عدا الإسلام ، فمجلاته قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة ، ويبدو أن هذا ربما تكون وراءه أجهزة تبشيرية ، حتى لايكون هناك التأثير الذي يمنع من التأثر بالتبشير ، إن أمتنا الإسلامية مطالبة بأن تتبصر العواقب ، وتتعرف على خطواتها بحكمة وتدبر ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع . إن التبشير نجح في تنصير البعض ، ونجح في أنه جعل المسلمين في موقف المدافع وهو موقف المهزوم ، فهل نتدارك هذه المواقف ، ونتخطاها إلى مواقف المواجهة؟ يجدر بنا أن نتعرف على الخطوات التالية :

أولاً : علينا أن ندرك تماماً أن هؤلاء لايبشرون بدينهم وعقائدهم ، أو يعملون على تحويل المسلم عن الإسلام ، إلا في حالة إدراكهم أن المسلمين غير مهتمين بالإسلام ، سلوكاً وتطبيقاً ، ومن هنا كان علينا أن تكون مواجهتنا للتبشير عملاً يعمل يهتم بإنشاء المدارس

والمستوصفات، والملاجىء ورعاية الأيتام، واللقطاء، والمسنين، ويصاحب ذلك توعية إسلامية، وتبشيرية بالإسلام.

ثانياً: إن ما يقوم به التبشير النصراني في أفريقيا والمجتمعات الإسلامية المختلفة، من بناء المستشفيات الخيرية، والمدارس وغيرها مما يقدم للإنسان، هو عمل خيري في الدرجة الأولى، لأن الإنسان في مثل هذه المجتمعات في حاجة إلى من يقدم له يد العون أو المساعدة بالعلم، والخبز، والعلاج، فإذا أراد المسلمون المواجهة العملية، فعليهم أن يعملوا مثل ما يعمل المبشرون ويزيدون عليهم.

ثالثاً: يجب أن يدرك المسلمون أن التبشير يملك إمكانيات هائلة: مادية وبشرية، فمواجهتنا للتبشير، يجب أن تتوفر لها الإمكانيات المادية، والطاقة البشرية.

رابعاً: لابد وأن نواجه التبشير من خلال مخطط دقيق، ينفذ بحكمة وبصيرة، توزع الأدوار ليكون هناك التكامل الواعي.

خامساً: يصاحب ذلك كله هجوم ونقد للأفكار الغربية والتبشيرية، لننتقل من مرحلة المواجهة ـ «الدفاع» ـ إلى مرحلة الهجوم والنقد..

وإذا كنا عرفنا كيفية مواجهة التبشير ـ وهو أصل رئيس لكل أدوات الغزو الفكري وتياراته في المجتمعات الإسلامية ـ فإن هذه المواجهة لاتتم إلا إذا قامت أجهزة الإعلام في الشعوب الإسلامية بأمرين:

الأمر الأول: أن تقف أجهزة الإعلام من (صحافة، وإذاعة، وتليفزيون، ومسرح، وسينما، وفيديو) عن تقديم أي شيء يتنافى مع

مبـادىء الإسـلام، لأنـه لافـائدة مـن مـواجهـة الفكـر الاستشراقي والتبشيري في الوقت الذي نجد فيه أجهـزة الإعلام، تمور بكل ما هو مخالف للإسلام من عري، وخلاعة، وتقاليد غربية.

والأمـر الثـاني : أن تـواكب مـؤسسات الإعـلام هـذه المواجهـة، فتتناولها وتقف من ورائها، وتعمل على مساعدتها بالتوجيه.

وقـد لايكـون المرء مجانبـاً للصـواب إذا تأكد لـديـه أن مـؤسسـات الإعــلام في بعض المجتمعــات الإســلاميــة، قــد نجح الاختراق الاستشراقي والتبشيري في الوصـول إليها، عن طريق عمـلائه الذين يديـرون شؤونها، ولـذا كان لابـد من تطهير مؤسسـات الإعلام من هـؤلاء العملاء، الـذين وقعـوا فـريسة الغـزو الفكـري، وتربـوا في مدارسه ومعاهده.

ولابد أن يتوجـه النقد إلى أي أثر من آثار «الغـزو الفكري» الموجود بالمجتمعات الإسلامية دون مجاملة لهذه المجتمعات، وأقول هذا، لأن كل مجتمع إسلامي يحب أن يمدح فقط، وقد يكون فيه من البلاوي ما فيه.

ومشكلتنا : أننا نفرح بالمدح، ونجامل بعضنا على حساب ما يمس شخصيتنا وإسلامنـا. يجب أن نضع في الحساب أن أي مجتمع إسلامي هو مجتمعنا دون عنصرية أو إقليمية أو قومية أو حزبية، وبهذا نستطيع أن نتمكن من المواجهة، وتقديم النصيحة.

ولابد أن تتجه جهود المسلمين في المجتمعات الإسلامية، إلى التربية لأن المبادىء الإسـلامية بمفاهيمها الأسـاسية، ومناهجها التربـوية،

تصنع شخصية متميزة لها سماتها وغاياتها الخاصة».

ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكري في برامجه التخريبية، هو هدم شخصيتنا الإسلامية: عقديًّا، وثقافيًّا، وسلوكيًّا، وعاطفيًّا.

ولعل معاول «الغـزو الفكري» التي أصابت الكثير، لم تـؤثر إلا من جراء إنهدام الشخصية الإسلامية.

ولهذا كان لابد من اتجاه فريق من المصلحين إلى تربية الأجيال، تربية إسلامية، تتولى المسؤولية، والإدارة.

* تـربية تجعل الإنسـان إيجابيـاً يعيش في حركـة فكـرية، ونفسيـة، وجسـدية، بنـاءة، بعيداً عن السلـوك التخـريبي.. رافضاً التحجـر والجمود.. لايرضى بالسلوك الانسحـابي الذي يتهرب من نشاطات الحياة، ويبتعد عن مواجهة الصعاب.

* تـربيـة تـؤهل الإنسان للعطـاء. وتنمي فيـه القـدرة على الإنتـاج والإبداع، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.

* تربيـة تعد الإنسـان إعداداً ناضجـاً لممارسة الحيـاة بالطـريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام، لأن الحياة في نظر الإسلام، عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس في الخيرات..

* تربيـة تجعل الشخصية الإسلاميـة شخصية متـزنة، لايطغى على موقفهـا الانفعال، ولا يسيطـر عليها التفكير المادي، ولا الانحـراف الفكري المتأتي من سيولة العقل وامتداد اللا معقول.

* تـربيـة تبني الإنسان على أسـاس وحـدة، فكـرية، وسلـوكيـة، وعاطفيـة، متماسكة.. على أساس من التنسيق، والتـوافق الفكري،

والعـاطفي، والسلـوكي، الملتــزم، الـذي لايعـرف التنـاقض، ولا الشذوذ.

* تربية تجعل الإنسان المسلم يشعر دوماً أنه مسؤول عن الإصلاح، وأنـه يجب عليه أن ينهض بمسـؤوليته، ويقـود نحـو شاطىء العـدل والسلام.

* وإن أمتنـا تتطلع إلى غد مشرق، والتطلع يحتـاج إلى علم وعمل، وجهود بناءة تكون علامات مضيئة في الطريق.

الفهـــرس

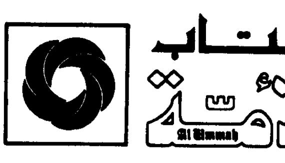
الموضـوع	الصفحـة

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٣٧٦ لســــــنة ١٩٩٣م

وكلاء التوزيع

البلد	إسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الثقافة	٤١٤١٨٢	ص.ب : ٨١٥٠ الدوحة
	□ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤١٣٤٧١	فاكس : ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
الإمارات	□ مكتبة دار الأمان	٣٤٤٨٣٠	ص.ب : ٤٦٩٥ أبوظبي
الإمارات	□ المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب : ١٥٥٤٠ العين ـ فاكس ٦٦٩٥٤٠
الإمارات	□ جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي	٦٦٥٦٥٤	ص.ب : ٤٦٦٣ دبي ـ فاكس ٦٦٢٠٧١
البحرين	□ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب : ٢٨٧ البحرين فاكس ٢١٠٧٦٦
السعودية	□ شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب : ٩٤٠٩ جدة ٢١٠٢١٤١٣ ـ شارع الملك فهد ـ خلف أسواق النويصر فاكس : ٦٦٠٧٦٠٠
عُمان	□ مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤ ٢٩٤٩٨٦	ص.ب : ١٨٦٨٢ ظفار ـ صلالة
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب : ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى ـ رمز بريدي : ٢٣٠٤٥ فاكس : ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥١١ـ٦٠١٥٠١ ٦٠١٩١١	ص.ب : ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس : ٦٠١٩٩١
اليمن	□ مكتبة الجيل الجديد	٧١٣٦٣ـ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ـ٢٧٠٣٨	ص.ب : ٥٤٤ ـ صنعاء
السودان	□ دار التوزيع	٧٥٥٨٥ـ٧٩٤٦٠ ٨٠٥٨٨	ص.ب : ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٥٨٨٨٨ـ٧٤٨٨٨٨	ص.ب : ٧ القاهرة ـ فاكس : ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سيبرس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب : 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272 - 5170/ 263 - 3071	**Muslim Welfare House** 233, Seven Sisters Road, London 2DA. Telex No: 8812176 MUSLIM G Registered Charity No: 271680



مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهًا
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالًا

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .